الشيخ ندا
أبو أحمد

حادثة الإفك... عبر وعظات

الشيخ/ندا أبو أحمد

حادثة الإفك... عبر وعظات

تمهيد

إنَّ الحمدَ لله نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، مَن يهد اللهُ فلا مضل له، ومَن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبدهُ ورسولُه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٢)

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء: ١)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب: ٧٠، ٧١)

أما بعد....

فإن أصدق الحديث كتاب الله -تعالى-، وخير الهدي، هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

حادثة الإفك[1]... عبر وعظات

حاول المنافقون الطعن في عرض النبي ﷺ بالافتراء على عائشة -رَضِيَ اللهُ عنها- بما يعرف في كتب السيرة بحادثة الإفك، والذي كان القصد منها النيل من النبي ﷺ ومن أهل بيته الأطهار، لإحداث الاضطراب والخلل في المجتمع الإسلامي، بعد أن فشلوا في إثارة النعرة الجاهلية، لإيقاع الخلاف والفرقة بين المسلمين.

أخرج البخاري ومسلم واللفظ له من حديث عائشة-رضي الله عنها- قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ، فَأَيُّهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَهُ[2]، قَالَتْ عَائِشَةُ-رضِيَ اللهُ عنها-: فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا فَخَرَجَ فِيهَا سَهْمِي، فَخَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ مَا أُنْزِلَ الْحِجَابُ، فَكُنْتُ أُحْمَلُ فِي هَوْدَجِي وَأُنْزَلُ فِيهِ، فَسِرْنَا حَتَّى إِذَا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ غَزْوَتِهِ تِلْكَ[3] وَقَفَلَ[4]، دَنَوْنَا مِنْ الْمَدِينَةِ قَافِلِينَ آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ، فَقُمْتُ حِينَ آذَنُوا بِالرَّحِيلِ فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ، فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي[5] أَقْبَلْتُ إِلَى رَحْلِي فَلَمَسْتُ صَدْرِي فَإِذَا عِقْدٌ لِي مِنْ جَزْعِ ظَفَارِ[6] قَدْ انْقَطَعَ، فَرَجَعْتُ فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي[7] فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ[8]، قَالَتْ: وَأَقْبَلَ الرَّهْطُ[9] الَّذِينَ كَانُوا يُرَحِّلُونِي فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي[10] فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ أَرْكَبُ عَلَيْهِ، وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ، وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يَهْبُلْنَ[11] وَلَمْ يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ، إِنَّمَا يَأْكُلْنَ الْعُلْقَةَ[12]مِنْ الطَّعَامِ، فَلَمْ يَسْتَنْكِرْ الْقَوْمُ خِفَّةَ الْهَوْدَجِ حِينَ رَفَعُوهُ وَحَمَلُوهُ، وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ فَبَعَثُوا الْجَمَلَ فَسَارُوا، وَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَ مَا اسْتَمَرَّ الْجَيْشُ، فَجِئْتُ مَنَازِلَهُمْ وَلَيْسَ بِهَا مِنْهُمْ دَاعٍ وَلَا مُجِيبٌ، فَتَيَمَّمْتُ[13]مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ بِهِ، وَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفْقِدُونِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ فِي مَنْزِلِي غَلَبَتْنِي عَيْنِي فَنِمْتُ، وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيّ مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ[14]، فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ[15] نَائِمٍ، فَعَرَفَنِي حِينَ رَآنِي، وَكَانَ رَآنِي قَبْلَ الْحِجَابِ، .....

١- الإفك: هو الافتراء والكذب وقلب حقائق الأمور.

٢- وهذا يدل على مَشروعيَّةُ القُرْعةِ بيْنَ النِّساءِ في السَّفرِ. والسفرُ بالنساء حتى في الغزو.

٣- وهي غزوة بني المصطلق وتسمى غزوة المُرَيْسِيع وكانت في السنة السادسة من الهجرة، وقيل الخامسة.

٤- قَفَلَ: أي رجع.

٥- وفيه توجه المرأة لقضاء حاجتها وبغير إذن خاص من زوجها، بل اعتمادًا على الإذن العام المستند إلى العرف العامّ.

٦- عِقْدٌ لي من جزع ظفار: والعقد نحو القلادة، والجزع خرز يماني معروف في سواده بياض كالعروق. وظفار: قرية باليمن.

٧- وفيه صيانة المال، ولو قلَّ؛ للنهي عن إضاعة المال، فإن عقد عائشة لم يكن من ذهبٍ ولا جوهرٍ. وقد أخرج البخاري ومسلم عن المغيرة ابن شعبة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:" إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلَاثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ".

٨- وفيه شؤم الحرص على المال؛ لأنها لو لم تُطل في التفتيش لرجعت بسرعة، فلما زاد على قدر الحاجة حدث ما جرى.

٩- الرهط: الجماعة من ثلاثة إلى عشرة.

١٠- هودجي: الهودج: وهو محمل له قبة تستر بالثياب يوضع على ظهر البعير؛ وهو مركب من مراكب النساء.

١١- لم يَهَبَّلْنَ: يقال هَبَّلَهُ اللحم وأهبله إذا أثقله وكثر لحمه وشحمه.

١٢- العلقة: أي القليل، ويقال لها أيضًا: البلغة.

١٣- تيممت: أي قصدت.

١٤- وكان صفوان بن المعطل ﷺ خلف الجيش وهو ما يعرف بالساقة: جمع سائق، وهم الذين يسوقون جيش الغزاة، ويكونون من ورائه يحفظونه، ليحملوا الضعيف، ويحفظوا ما يسقط، وغير ذلك من المصالح. ولابد أن يكونوا أمناء ". **(انظر النهاية:٢/ ٣٨١).**

١٥- سواد إنسان: أي شخصه.

فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ[1] حِينَ عَرَفَنِي، فَخَمَّرْتُ وَجْهِي[2] بِجِلْبَابِي، وَ وَاللَّهِ مَا تَكَلَّمْنَا بِكَلِمَةٍ وَلَا سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ[3]، وَهَوَى حَتَّى أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ فَوَطِئَ عَلَى يَدِهَا، فَقُمْتُ إِلَيْهَا فَرَكِبْتُهَا[4]، فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حَتَّى أَتَيْنَا الْجَيْشَ مُوغِرِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ[5] وَهُمْ نُزُولٌ، قَالَتْ: فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَ الْإِفْكِ[6] عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ[7]، قَالَ عُرْوَةُ: أُخْبِرْتُ أَنَّهُ كَانَ يُشَاعُ وَيُتَحَدَّثُ بِهِ عِنْدَهُ فَيُقِرُّهُ وَيَسْتَمِعُهُ وَيَسْتَوْشِيهِ، وَقَالَ عُرْوَةُ أَيْضًا: لَمْ يُسَمَّ مِنْ أَهْلِ الْإِفْكِ أَيْضًا إِلَّا حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ، وَمِسْطَحُ بْنُ أُثَاثَةَ، وَحَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ، فِي نَاسٍ آخَرِينَ لَا عِلْمَ لِي بِهِمْ غَيْرَ أَنَّهُمْ عُصْبَةٌ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَإِنَّ كِبْرَ ذَلِكَ يُقَالُ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ، قَالَ عُرْوَةُ كَانَتْ عَائِشَةُ تَكْرَهُ أَنْ يُسَبَّ عِنْدَهَا حَسَّانُ وَتَقُولُ إِنَّهُ الَّذِي قَالَ: فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ

قَالَتْ عَائِشَةُ -رضِيَ اللهُ عنها-: فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فَاشْتَكَيْتُ حِينَ قَدِمْتُ شَهْرًا، وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ[8] فِي قَوْلِ أَصْحَابِ الْإِفْكِ لَا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ[9] مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ يَرِيبُنِي[10] فِي وَجَعِي أَنِّي لَا أَعْرِفُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ اللُّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَشْتَكِي[11]، إِنَّمَا يَدْخُلُ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَيُسَلِّمُ ثُمَّ يَقُولُ: كَيْفَ تِيكُمْ[12]؟ ثُمَّ يَنْصَرِفُ، فَذَلِكَ يَرِيبُنِي وَلَا أَشْعُرُ بِالشَّرِّ، حَتَّى خَرَجْتُ حِينَ نَقَهْتُ[13] فَخَرَجْتُ مَعَ أُمِّ مِسْطَحٍ قِبَلَ الْمَنَاصِعِ[14] وَكَانَ مُتَبَرَّزَنَا وَكُنَّا لَا نَخْرُجُ إِلَّا لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ؛ وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ الْكُنُفَ[15] قَرِيبًا مِنْ بُيُوتِنَا، قَالَتْ: وَأَمْرُنَا أَمْرُ الْعَرَبِ الْأُوَلِ فِي الْبَرِّيَّةِ قِبَلَ الْغَائِطِ، وَكُنَّا نَتَأَذَّى بِالْكُنُفِ أَنْ نَتَّخِذَهَا عِنْدَ بُيُوتِنَا.

---

١ - باسترجاعه: أي بقوله: إنا لله وإنا إليه راجعون. وهذا يدل على استحباب الاسترجاعُ عِندَ المَصائِبِ، سَواءٌ كانَت في الدِّينِ أو في الدُّنيا، وَسواءٌ كانَت في نَفْسِه أو مَن يَعِزُّ عَليه.

٢- فخمرت وجهي: أي غطيته، وفي هذا دليل على مشروعية النقاب، وأنه ينبغي على المرأة المنتقبة أن تغطي وجهها عن نظر الرجل الأجنبي سواء كان صالحًا أو غيره.

٣- وهذا ينبغي ان يفعل مع المرأة الأجنبية، خصوصًا عند الخلوة بها عند الضرورة في برية أو غيرها، كما فعل صفوان في إبراكه للناقة من غير كلام ولا سؤال وأنه ينبغي أن يمشي أمام المرأة لا بجنبها ولا ورائها.

٤- وهذا يدل على إيثار وإكرام ذوي القدر أو النساء أو الصغار بالركوب كما فعل صفوان ﷺ مع عائشة رَضِيَ اللهُ عنها. وتجشم- تكلف- المشقة لأجل ذلك.

٥- موغرين في نَحْرِ الظهيرة: الموغر النازل في وقت الوغرة، وهي شدة الحر. ونحر الظهيرة: وقت القائلة وشدة الحر.

٦- تَوَلَّى كِبْرَهُ: أي تولى معظمه انفرَدَ بأكبرِ الإثمِ فيه وأعظمِه، وهو الَّذي بدَأَ بنَشْرِ الشَّائعةِ والكذبِ أي على أمِّ المؤمنينَ رضيَ اللهُ عنها. وأخبرت عائشةُ - رَضِيَ اللهُ عنها- أنَّ الذي تولَّى كِبْرَ هذا الأمْرِ مِنَ المنافقين هو عبدُ اللهِ بنُ أبيٍّ ابنُ سلولَ، وفيه نزل قوله تعالَى: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ **(النور:١١)**

٧- فَلَمَّا رَآهَا عَبْدُ الله بن أبي زعيم المنافقين لَعَنَهُ الله قَالَ: مَنْ هذه؟ قالوا: عائشة، قال: من مَعَهَا؟ قَالُوا: صَفْوَانُ بَنَّ الْمُعَطِّلِ، قَالَ: انظُرُوا إِلَى زوجَة نَبِيِّكُمْ، بَاتَتْ مَعَ رَجُل حَتَّى أَصْبَحَتْ ثم انْطَلَقَ يَقُودُ بِهَا، وَاللهِ مَا سَلِمَتْ مِنْهُ وَلا سَلِمَ مِنْهَا. وَشَاعَ الْخَبَرُ في المدينة، وَلَاكَتْهُ الْأَلْسِنَةُ، حَتَّى تحدث بِهِ نَفَرَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ دُونَ تَحَري، ولا تَثَبَّت، وَلَا مُرَاعَاةِ لِحُرْمَةِ رَسُول الله ﷺ وَزَوْجِهِ، وَوَالِدَهَا الصِّدِيقَ.

٨- يفيضون في قول أهل الإفك: أي يخوضون.

٩- وفيه أنه لا ينبغي لأهل المريض أن يُعلموه بما يؤذي باطنه؛ لئلا يزيد ذلك في مرضه.

١٠- يريبني: أي يشككني.

١١ - ويؤخذ من هذا أنه إذا كان شيء في نفس الزوج من زوجته فإنه يقلل من ملاطفة الزوجة لتفطن أن هناك أمر ما، فتسأل عن سببه وتزيله.

١٢- كيفَ تِيكُمْ؟: أي كيف حالُكِ. وتِيكُمْ هي للمؤنث مثل ذاكم للذكر.

١٣- نَقِهْتُ: أي أفقت من المرض.

١٤- المَنَاصع: هي مواضع خارج المدينة كانوا يتبرزون فيها.

١٥- الكنف: جمع كنيف وهو المكان الساتر.

قَالَتْ: فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ وَهِيَ ابْنَةُ أَبِي رُهْمِ بْنِ الْمُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ وَأُمُّهَا بِنْتُ صَخْرِ بْنِ عَامِرٍ خَالَةُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، وَابْنُهَا مِسْطَحُ بْنُ أُثَاثَةَ بْنِ عَبَّادِ بْنِ الْمُطَّلِبِ، فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ بَيْتِي حِينَ فَرَغْنَا مِنْ شَأْنِنَا، فَعَثَرَتْ أُمُّ مِسْطَحٍ فِي مِرْطِهَا[1]، فَقَالَتْ: تَعِسَ مِسْطَحٌ[2]، فَقُلْتُ لَهَا: بِئْسَ مَا قُلْتِ، أَتَسُبِّينَ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا[3]، فَقَالَتْ: أَيْ هَنْتَاهْ[4]! وَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالَ؟ قَالَتْ: وَقُلْتُ: مَا قَالَ؟ فَأَخْبَرَتْنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الْإِفْكِ، قَالَتْ: فَازْدَدْتُ مَرَضًا عَلَى مَرَضِي، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ:" كَيْفَ تِيكُمْ؟ فَقُلْتُ لَهُ: أَتَأْذَنُ لِي أَنْ آتِيَ أَبَوَيَّ[5]، قَالَتْ: وَأُرِيدُ أَنْ أَسْتَيْقِنَ الْخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا، قَالَتْ: فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ لِأُمِّي: يَا أُمَّتَاهْ! مَاذَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ؟ قَالَتْ: يَا بُنَيَّةُ! هَوِّنِي عَلَيْكِ، فَوَاللَّهِ لَقَلَّمَا كَانَتْ امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةً[6] عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا لَهَا ضَرَائِرُ إِلَّا كَثَّرْنَ عَلَيْهَا[7]، قَالَتْ: فَقُلْتُ: سُبْحَانَ اللَّهِ! أَوَ لَقَدْ تَحَدَّثَ النَّاسُ بِهَذَا؟ قَالَتْ: فَبَكَيْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ لَا يَرْقَأُ لِي[8] دَمْعٌ، وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ[9]، ثُمَّ أَصْبَحْتُ أَبْكِي، قَالَتْ: وَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ حِينَ اسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ[10] يَسْأَلُهُمَا وَيَسْتَشِيرُهُمَا[11] فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ، قَالَتْ: فَأَمَّا أُسَامَةُ فَأَشَارَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالَّذِي يَعْلَمُ مِنْ بَرَاءَةِ أَهْلِهِ وَبِالَّذِي يَعْلَمُ لَهُمْ فِي نَفْسِهِ، فَقَالَ أُسَامَةُ: أَهْلَكَ وَلَا نَعْلَمُ إِلَّا خَيْرًا، وَأَمَّا عَلِيٌّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! لَمْ يُضَيِّقْ اللَّهُ عَلَيْكَ وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ، وَسَلْ الْجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ[12]، قَالَتْ: فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَرِيرَةَ، فَقَالَ:" أَيْ بَرِيرَةُ! هَلْ رَأَيْتِ مِنْ شَيْءٍ يَرِيبُكِ؟.....

١- في مرطها: المرط الكساء من صوف. وقد يكون من غيره. وقولها: فَعَثَرَتْ أُمُّ مِسْطَحٍ فِي مِرْطِهَا: أي وطئته برجلها فسقطت.

٢- تعس مسطح: أي هلك، وقيل: سقط بوجهه. وفيه فضيلةٌ لأم مسطحٍ؛ لأنها لم تُحاب ولدها في وقوعه في حق عائشة رضي الله عنها، بل تعمدت سبهُ على ذلك.

٣- وفيه ذب المسلم عن المسلم خصوصًا من كان من أهل الفضل، وردع من يؤذيه، حتى لو كان منه. وفيه بيان فضيلة أهل بدر. والنبي ﷺ قال عن أهل بدر: إِنَّ اللَّهَ قَالَ لَهُمْ: اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ فقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ ". (أخرجه البخاري ومسلم).، وأن الراجح أن المراد بذلك أن الذنوب تقع منهم لكنها مقرونةٌ بالمغفرة تفضيلًا لهم على غيرهم بسبب ذلك المشهد العظيم (غزوة بدر).

٤- هَنتاه: معناه يا هذه، وقيل: يا امرأة، وقيل: يا بلهاء، كأنها نسبت إلى قلة المعرفة بمكايد الناس وشرورهم.

٥ - وفيه توقف خروج المرأة من بيتها على إذن زوجها، ولو كانت ذاهبة إلى بيت أبويها.

٦ - وضيئة: هي الجميلة الحسنة والوضاءة الحسن.

٧ - إِلَّا كَثَّرْنَ عَلَيْهَا: أي القول في عيبها.

٨ - لا يرقأ: أي لا ينقطع.

٩ - ولا أكتحل بنوم: أي لا أنام.

١٠- استلبَثَ الوحي: أي أبطأ ولبث ولم ينزل.

١١- وفيه استشارة المرء أهل بطانته ممن يلوذ به بقرابة وغيرها، وتخصيص من جُربت صحة رأيه منهم بذلك، ولو كان غيره أقرب، والبحث عن حال من اتهم بشيءٍ، وحكاية ذلك للكشف عن أمره، ولا يُعد ذلك غيبةً.

١٢- وموقف علي ﷺ، فإنه لا يشينه، ولم يكن كرها لعائشة - رضي الله عنها- كما يشيع الروافض، وإنما كانت مشورته بأمرين: إما أن يفارق زوجته ليستريح خاطره حتى نزول الوحي فيراجعها بعد ذلك، أو يتثبت من الأمر بسؤال الجارية، وهذا يدل على أنه لم يجزم بفراقها.
قال ابن حجر- رحمه الله - في "فتح الباري:٨/٤٦٨":" وَهَذَا الْكَلَامُ الَّذِي قَالَه عَلِيّ ﷺ، حمله عَلَيْهِ تَرْجِيح جانب النَّبِيَّ ﷺ، لَمَّا رَأَى عِنْده من القلق بِسَبَبِ الْقَوْلِ الَّذِي قِيلَ، وَكَانَ ﷺ شَدِيدُ الْغَيْرَةِ، فَرَأَى عَلِيٌّ ﷺ أَنَّهُ إِذَا فَارَقَهَا، سَكَنَ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْقَلَقِ بِسَبَبِهَا، إِلَى أَنْ يَتَحَقَّقَ بَرَاءَتَهَا، فَيُمْكِنُ رَجْعَتُهَا. وهذا من باب: ارْتِكَابُ أَخَفِّ الضَّرَرَيْنِ، لِذَهَابِ أَشَدِّهِمَا.
وَقَالَ الشَّيْخُ أَبُو مُحَمَّدِ بْنُ أَبِي جَمْرَةَ: لَمْ يَجْزِمْ عَلِيٌّ بِالْإِشَارَةِ بِفِرَاقِهَا، لِأَنَّهُ عَقَّبَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: وَسَلِ الْجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ. فَفَوَّضَ الْأَمْرَ فِي ذَلِكَ إِلَى نَظَرِ النَّبِيِّ ﷺ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: إِنْ أَرَدْتَ تَعْجِيلَ الرَّاحَةِ، فَفَارِقْهَا. وَإِنْ أَرَدْتَ خِلَافَ ذَلِكَ، فَابْحَثْ عَنْ حَقِيقَةِ الْأَمْرِ، إِلَى أَنْ تَطَّلِعَ عَلَى بَرَاءَتِهَا، لِأَنَّهُ كَانَ يَتَحَقَّقُ أَنَّ بَرِيرَةَ لَا تُخْبِرُهُ إِلَّا بِمَا عَلِمَتْهُ، وَهِيَ لَمْ تَعْلَمْ مِنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عنها- إِلَّا الْبَرَاءَةَ الْمَحْضَةَ ". اهـ

قَالَتْ لَهُ بَرِيرَةُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا رَأَيْتُ عَلَيْهَا أَمْرًا قَطُّ أَغْمِصُهُ[1]؛ غَيْرَ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ تَنَامُ عَنْ عَجِينِ أَهْلِهَا فَتَأْتِي الدَّاجِنُ[2] فَتَأْكُلُهُ، قَالَتْ: فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ يَوْمِهِ فَاسْتَعْذَرَ[3] مِنْ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ أُبَيٍّ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ! مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي عَنْهُ أَذَاهُ فِي أَهْلِي، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا[4] مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي، قَالَتْ: فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ أَخُو بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعْذِرُكَ، فَإِنْ كَانَ مِنْ الْأَوْسِ ضَرَبْتُ عُنُقَهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنْ الْخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا أَمْرَكَ، قَالَتْ: فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ الْخَزْرَجِ وَكَانَتْ أُمُّ حَسَّانَ بِنْتَ عَمِّهِ مِنْ فَخِذِهِ وَهُوَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ وَهُوَ سَيِّدُ الْخَزْرَجِ، قَالَتْ: وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ رَجُلًا صَالِحًا وَلَكِنْ احْتَمَلَتْهُ الْحَمِيَّةُ[5]، فَقَالَ لِسَعْدٍ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ لَا تَقْتُلُهُ وَلَا تَقْدِرُ عَلَى قَتْلِهِ وَلَوْ كَانَ مِنْ رَهْطِكَ مَا أَحْبَبْتَ أَنْ يُقْتَلَ، فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ وَهُوَ ابْنُ عَمِّ سَعْدٍ فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ لَنَقْتُلَنَّهُ فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنْ الْمُنَافِقِينَ، قَالَتْ: فَثَارَ الْحَيَّانِ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ[6] حَتَّى هَمُّوا أَنْ يَقْتَتِلُوا وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَائِمٌ عَلَى الْمِنْبَرِ، قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُخَفِّضُهُمْ حَتَّى سَكَتُوا وَسَكَتَ[7]، قَالَتْ: فَبَكَيْتُ يَوْمِي ذَلِكَ كُلَّهُ لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، قَالَتْ: وَأَصْبَحَ أَبَوَايَ عِنْدِي وَقَدْ بَكَيْتُ لَيْلَتَيْنِ وَيَوْمًا لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ حَتَّى إِنِّي لَأَظُنُّ أَنَّ الْبُكَاءَ فَالِقٌ كَبِدِي، فَبَيْنَا أَبَوَايَ جَالِسَانِ عِنْدِي وَأَنَا أَبْكِي فَاسْتَأْذَنَتْ عَلَيَّ امْرَأَةٌ مِنْ الْأَنْصَارِ فَأَذِنْتُ لَهَا، فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي[8]، قَالَتْ: فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَيْنَا فَسَلَّمَ ثُمَّ جَلَسَ، قَالَتْ: وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مُنْذُ قِيلَ مَا قِيلَ قَبْلَهَا، وَقَدْ لَبِثَ شَهْرًا[9] لَا يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي بِشَيْءٍ، قَالَتْ: فَتَشَهَّدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ جَلَسَ ثُمَّ قَالَ:" أَمَّا بَعْدُ، يَا عَائِشَةُ! إِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللَّهُ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ ثُمَّ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ[10]، قَالَتْ: فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَقَالَتَهُ قَلَصَ دَمْعِي[11] حَتَّى مَا أُحِسُّ مِنْهُ قَطْرَةً، فَقُلْتُ لِأَبِي: أَجِبْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِّي فِيمَا قَالَ، فَقَالَ أَبِي:

١- أغمصه عليها: أي أعيبها به، وأطعن بها عليه.

٢- الداجن: الشاة التي تألف البيت ولا تخرج للمرعى. ومعنى هذا الكلام أنه ليس فيها شيء مما تسألون عنه أصلا، ولا فيها شيء من غيره، إلا نومها عن العجين.

٣ - استعذر: معناه: من يعذرني فيمن آذاني في أهلي، وقيل: معناه من ينصرني. والعذير الناصر.

٤- هو صفوان بن المعطل السلمي ﷺ.

٥- احتملته الحمية (وفي رواية: اجْتَهَلَتهُ): أي استخفته وأغضبته وحملته على الجهل.

٦- فثار الحيان الأوس والخزرج: أي تناهضوا للنزاع والعصبية.

٧- لقد كادت حادثة الإفك أن تحقق للمنافقين ما كانوا يسعون إليه من هدم وحدة المسلمين، وإشعال نار الفتنة بينهم، ولكن الله سلَّم، وتمكن الرسول ﷺ بحكمته - وهو في تلك الظروف الحالكة - أن يجتاز هذا الامتحان الصعب، وأن يصل بالمسلمين إلى شاطئ الأمان.
وفيه تسكين ثائرة الفتنة، وسد ذريعة ذلك، واحتمال أخف الضررين (عدم قتل ابن سلول) بزوال أغلظهما(فرقة المسلمين، وانتشار الفتنة)

٨- وفيه مساعدة من نزلت فيه بليةٌ بالتوجع والبكاء والحزن.

٩ - التقيد بالشهر فهو المدة التي أولها إتيان عائشة إلى بيت أبويها.

١٠- وفي رواية:" إن كنتِ ألَمَمْتِ بذنبٍ فاستغفِري اللهَ وتوبي إليهِ، فإن التوبةَ من الذنبِ: الندمُ والاستغفارُ". **(صحيح الجامع: ١٤٣٣)**

١١- قَلَصَ الدمع: أي ارتفع وذهب لاستعظام ما يعيبني من الكلام.

وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ[1]، فَقُلْتُ لِأُمِّي: أَجِيبِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِيمَا قَالَ، قَالَتْ أُمِّي: وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

فَقُلْتُ: وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ لَا أَقْرَأُ مِنْ الْقُرْآنِ كَثِيرًا، إِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَقَدْ سَمِعْتُمْ هَذَا الْحَدِيثَ حَتَّى اسْتَقَرَّ فِي أَنْفُسِكُمْ وَصَدَّقْتُمْ بِهِ، فَلَئِنْ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّي بَرِيئَةٌ لَا تُصَدِّقُونِي، وَلَئِنْ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي مِنْهُ بَرِيئَةٌ لَتُصَدِّقُنِّي، فَوَاللَّهِ لَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلًا إِلَّا أَبَا يُوسُفَ[2]حِينَ قَالَ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ (يوسف:١٨) ثُمَّ تَحَوَّلْتُ وَاضْطَجَعْتُ عَلَى فِرَاشِي، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي حِينَئِذٍ بَرِيئَةٌ، وَأَنَّ اللَّهَ مُبَرِّئِي بِبَرَاءَتِي، وَلَكِنْ وَاللَّهِ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ مُنْزِلٌ فِي شَأْنِي وَحْيًا يُتْلَى، لَشَأْنِي فِي نَفْسِي كَانَ أَحْقَرَ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللَّهُ فِيَّ بِأَمْرٍ، وَلَكِنْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللَّهُ بِهَا، فَوَاللَّهِ مَا رَامَ[3] رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَجْلِسَهُ وَلَا خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ حَتَّى أُنْزِلَ عَلَيْهِ فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنْ الْبُرَحَاءِ[4] حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِنْ الْعَرَقِ مِثْلُ الْجُمَانِ[5] وَهُوَ فِي يَوْمٍ شَاتٍ مِنْ ثِقَلِ الْقَوْلِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ، قَالَتْ: فَسُرِّيَ[6]عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَكَانَتْ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا أَنْ قَالَ: يَا عَائِشَةُ! أَمَّا اللَّهُ فَقَدْ بَرَّأَكِ[7]، قَالَتْ: فَقَالَتْ لِي أُمِّي: قُومِي إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَقُومُ إِلَيْهِ، فَإِنِّي لَا أَحْمَدُ إِلَّا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ[8]، قَالَتْ: وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ(١١) لَّوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ(١٢) لَّوْلاَ جَاؤُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاء فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ(١٣) وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ(١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ(١٥) وَلَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ(١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(١٨)

١- وفيه تثبت أبي بكر الصديق ﷺ في الأمور؛ لأنه لم يُنقل عنه في هذه القصة مع تمادي الحال فيها شهرًا كلمةً فما فوقها، إلا ما ورد عنه في بعض طرق الحديث أنه قال: والله ما قيل لنا هذا في الجاهلية، فكيف بعد أن أعزنا الله بالإسلام، وقع ذلك في حديث ابن عمر- رضي الله عنهما- عند الطبراني.

٢- هو يعقوب - عليه السلام-.

٣ - ما رام: أي ما فارق.

٤ - البرحاء: هي الشدة (أي شدة الكرب من ثقل الوحي).

٥ - الجمان: الدر. شبهت قطرات عرقه بحبات اللؤلؤ في الصفاء والحسن.

٦- فَسُرِّيَ: انكشف عنه ما يجده من الهم والثقل.

٧- وفيه تدريج من وقع في مُصيبةٍ فزالت عنه لئلا يهجم على قلبه الفرح من أول وهلةٍ فيهلكه، يُؤخذ ذلك من ابتداء النبي ﷺ بعد نزول الوحي ببراءة عائشة - رضي الله عنها- بالضحك، ثم تبشيرها، ثم إعلامها ببراءتها مُجملة، ثم تلاوته الآيات على وجهها، وقد نص الحكماء على أن من اشتد عليه العطش لا يُمكن من المبالغة في الري في الماء لئلا يُفضي به ذلك إلى الهلكة، بل يُجرع قليلًا قليلًا.

٨- وقول عائشة - رضي الله عنها-:" ولا أحمد إلا الله " فإن ذلك كان منها إِدْلَالًا، كَمَا يُدِلُّ الْحَبِيبُ عَلَى حَبِيبِهِ، إذا لم يجد منه ما يريد، فإنها كانت ترجو من النبي ﷺ ألا يتوقف في أمرها، بل أن يبادر بتكذيبهم، ويعلن براءتها دون انتظار الوحي، وقد أَشَارَتْ إِلَى إِفْرَادِ اللَّهِ تَعَالَى بالحمد بِقَوْلِهَا:" فَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ بَرَاءَتِي "؛ فَنَاسَبَ إِفْرَادُهُ بِالْحَمْدِ فِي الْحَالِ؛ وَلَا يَلْزَمُ مِنْهُ تَرْكُ الْحَمْدِ بَعْدَ ذَلِكَ لحبيبها رسول الله ﷺ.

إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ(١٩) وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّه رَؤُوفٌ رَحِيم﴾(النور:١١-٢٠) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ هَذَا فِي بَرَاءَتِي، قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيق- وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَفَقْرِهِ-: وَاللَّهِ لا أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ مَا قَالَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (النور:٢٢)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: بَلَى، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي، فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: وَاللَّهِ لا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا[١]، قَالَتْ عَائِشَةُ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَأَلَ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ [٢] عَنْ أَمْرِي؛ فَقَالَ لِزَيْنَبَ: مَاذَا عَلِمْتِ أَوْ رَأَيْتِ؟ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي [٣]، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِلَّا خَيْرًا، قَالَتْ عَائِشَةُ: وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي[٤] مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ فَعَصَمَهَا اللَّهُ بِالْوَرَعِ[٥]، قَالَتْ: وَطَفِقَتْ أُخْتُهَا حَمْنَةُ [٦] تُحَارِبُ لَهَا[٧] فَهَلَكَتْ فِيمَنْ هَلَكَ، قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: فَهَذَا الَّذِي بَلَغَنِي مِنْ حَدِيثِ هَؤُلاءِ الرَّهْطِ، ثُمَّ قَالَ عُرْوَةُ: قَالَتْ عَائِشَةُ: وَاللَّهِ إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي قِيلَ لَهُ مَا قِيلَ، لَيَقُولُ: سُبْحَانَ اللَّهِ! فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا كَشَفْتُ مِنْ كَنَفِ أُنْثَى قَطُّ، قَالَتْ: ثُمَّ قُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ".

انتهاء المحنة:

وهكذا، وبعد شهرٍ انقشعت وأقلعت سحابة الشك والارتياب، والقلق والاضطراب عن جو المدينة، وافتضح رأس المنافقين افتضاحًا لم يستطع أن يرفع رأسه بعد ذلك. **(انظر الرحيق المختوم ص:٣٣٣)**

قال ابن إسحاق-رحمه الله-: "وبعد ذلك كان ابن سلول إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يُعاتبونه، ويأخذونه، ويُعنفونه، **فقال رسول الله** ﷺ: " كَيْفَ تَرَى يَا عُمَرُ؟ أَمَا وَاللَّهِ لَوْ قَتَلْتُهُ يَوْمَ قُلْتَ لِي اقْتُلْهُ، لَأُرْعِدَتْ [٨] لَهُ آنُفٌ، لَوْ أَمَرْتُهَا الْيَوْمَ بِقَتْلِهِ لَقَتَلَتْهُ". **فقال عمر** ﷺ: **قد والله علمت لأمر رسول الله** ﷺ **أعظم بركة من أمري** ". **(سيرة ابن هشام:٣/ ٣٢١)**

١- ويستفاد من هذا التوقف عند أمر الله -عز وجل- بالطاعة، وإن كانت مخالفة لرغبة الإنسان وهواه، ظهر ذلك في موقف أبي بكر ﷺ الذي كان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره فلما وقع في عائشة ترك النفقة عليه، فلما أنزل الله براءة عائشة -رَضِيَ اللهُ عنها- قال أبو بكر:" والله لا أنفق على مسطح شيئا أبدا بعد الذي قال في عائشة - رضي الله عنها-، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيم﴾ **(النور:٢٢)**، فقال أبو بكرﷺ: " بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي"، فأرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفقها عليه.

- وفيه أيضًا أن من حلف أن لا يفعل شيئًا من الخير استحب له الحنث في اليمين يعني نقضها ويفعل الخير. فَقد قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ:" مَن حَلَفَ علَى يَمِينٍ، فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا منها، فَلْيَأْتِهَا، وَلْيُكَفِّرْ عن يَمِينِهِ ". (رواه مسلم من حديث أبي هريرةﷺ)

٢- زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ- رضي الله عنها-: هي زوج النبي ﷺ وهي بنت عمته.

٣ - أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي: أي أمنعهما من العذاب بسبب الافتراء، أو القول بغير علم.

٤- تساميني: أي تفاخرني وتضاهيني بجمالها ومكانها عند النبي ﷺ. وفي هذا الحديث تظهر فَضيلةِ زَينَبَ بِنْتِ جَحْش أُمِّ المُؤمِنينَ.

٥ - فَعَصَمَهَا اللَّهُ بِالْوَرَعِ: أي حفظها ومنعها.

٦- حَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ: هي بنت عمة النبي ﷺ وهي أخت زينب - رضي الله عنها-

٧- وطفقت أختها تحارب لها: أي جعلت تتعصب لها فتحكي ما يقوله أهل الإفك.

٨- أرعدت: أي اضطربت. (لسان العرب: ٥/ ٢٤٢).

شرح حديث الإفك:

قِصَّةُ الإفْكِ الَّتي اتُّهِمتْ فيها أمُّ المؤمنينَ عائشةُ رَضيَ اللهُ عنها في عِرضِها بُهتانًا وكَذِبًا؛ كانت مِن أعظمِ الحوادثِ، وكانت اخْتِبارًا حَقيقيًّا لصِدْقِ الإيمانِ لدَى كَثيرٍ مِنَ المسلِمينَ، وقدْ أَنْزَلَ اللهُ بَيانًا واضِحًا لبَراءتِها، وهذا مِنْ فَضْلِ اللهِ عليها وعلى النَّبيِّ ﷺ والأُمَّةِ كُلِّها.

وفي هذا الحديثِ تَحْكي أمُّ المؤمنينَ عائِشةُ -رَضيَ اللهُ عنها- أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ كان إذا أرادَ الخُروجَ إلى السَّفَرِ يُجْري قُرْعةً بيْن أزْواجِه، فأيَّتُهنَّ خَرَجَ سَهمُها صَحِبَها مَعَه، فخَرَجَ سَهْمُ عائشةَ -رَضيَ اللهُ عنها- في غَزْوةِ بَني المُصْطَلِق، وتُسمَّى المُرَيْسيعَ، وكانت في السَّنةِ الخامسةِ مِن الهِجرةِ، وقيل: السادسة، وكان ذلك بعْدَ أنْ أنْزَلَ اللهُ آيةَ الحِجابِ، فخَرَجَتْ مَعه إليها، حتَّى إذا فَرَغَ رَسولُ اللهِ ﷺ مِن غَزْوتِه تلكَ وعادَ، واقْتَرَبوا مِن المَدينةِ؛ أعلَنَ عَن رَحيلِه، وأعْلَمَ النَّاسَ بذلك، فقامت عائشةُ لقَضاءِ حاجتِها قبْلَ الرَّحيلِ، وَلمَّا انتَهَت مِن قَضاءِ حاجتِها، أقْبَلت إلى مكانِ جَمَلِها ورَحْلِها، فلَمَسَت صَدْرَها، فإذا عِقْدُها الَّذي مِن جَزْعِ أظْفارٍ -وهو الخَرَزُ اليَمانيُّ- قَد انْقَطَعَ، فرَجَعَت إلى المكانِ الذي قَضَت فيها حاجتَها لتَبحَثَ عَنه، فَتَأخَّرت عَن العَودةِ، فرَحَل القَومُ وذَهَبوا مِن المكانِ دونَ عائِشةَ رَضيَ اللهُ عنها، ظَنًّا مِنْهُم أنَّها مَعَهم، وَلَم يُلاحِظوا خِفَّةَ هَودَجِها لخِفَّةِ أجْسامِ النِّساءِ في ذلكَ الوَقتِ؛ فلم يُكُنَّ مُمْتلئاتٍ كَثيراتِ الشُّحومِ؛ لأنَّهنَّ إنَّما كُنَّ يَأْكُلْنَ "العُلْقةَ"، وهو القَليلُ مِن الطَّعامِ الذي يَسُدُّ الجُوعَ.

فما كانَ مِن عائشةَ رَضيَ اللهُ عنها إلَّا أنَّها انْتَظَرَت القَومَ يَرجِعونَ إليها عِندَما يَشعُرونَ بِفِقدانِها، فغَلَبَها النُّعاسُ فنامَتَ مَكانَها، وقدْ كانَ صَفْوانُ بنُ المعطَّلِ ﷺ يَتَفَقَّدُ مُخَلَّفاتِ الجَيشِ بعْدَ رَحيلِه حَتَّى يُوصِلَها إلى أصحابِها، فوَجَدَ عائشةَ رَضيَ اللهُ عنها نائِمةً، وكانَ يَعرِفُها قبْلَ فَرْضِ الحِجابِ، فاستَرجَعَ قائلًا: إنَّا للهِ وإنَّا إليه راجِعون، فاستَيقَظَت عائِشةُ -رَضيَ اللهُ عنها- على صَوتِه، فَغَطَّت وَجْهَها، وَلَم يَتكلَّما بِكلِمةٍ واحِدةٍ حَتَّى رَكِبَت الرَّاحِلةَ إلى أنْ وَصَلَت إلى الجَيْشِ الذي كان قدْ سَبَقَهما.

وقولُها: " **فهَلَكَ مَن هَلَكَ**"، أي: هلَكَ الذين اشتَغَلوا بالإفكِ عليها، وعَلى رَأْسِهم عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ ابنُ سَلولَ، رَأْسُ المُنافِقينَ، ومِمَّن خاضوا فيه أيضًا حَسَّانُ بنُ ثابِتٍ، ومِسْطَحُ بنُ أُثاثةَ، وحَمْنةُ بِنتُ جَحْشٍ أخْتُ زَينَبَ بنتِ جَحشٍ.

وَتَحكي عائِشةُ رَضيَ اللهُ عنها أنَّها مَرِضَتْ حينَ قَدِمَت المَدينةَ شَهْرًا، والنَّاسُ يَتناقَلون ويَخوضون في قَولِ أصْحابِ الإفْكِ، وَهيَ لا تَشعُرُ بِشَيءٍ بما يُقالُ عنها وبما يَتناوَلُها به النَّاسُ، وكان يُشكِّكُها ويُوهِمُها حُصولَ شَيءٍ أنَّها في هذه المرَّةِ مِن مَرَضِها كان النَّبيُّ ﷺ لا يَدخُلُ عليها كما كانتْ عادَتُه معها مِن الشَّفَقةِ واللُّطفِ والرِّفقِ بها حينَ تَشتكي وتَمرَضُ، وإنَّما كان إذا دَخَلَ حُجرتَها اكْتَفى بالسَّلامِ، ثُمَّ يَقولُ: "**كيفَ تِيكُمْ؟**" أي: كيف حالُكِ؟ يُشيرُ إلى عائشةَ -رَضيَ اللهُ عنها-، فسَأَلَ عنها بلَهْجةٍ فاترةٍ، ودونَ أنْ

يُشعِرها بشَيءٍ ممَّا يُقالُ، حتَّى" **نَقَهَتْ**"، أي: شُفِيَت وفاقتْ مِن مَرَضِها، خَرَجَتْ مع أُمِّ مِسْطَحِ بنتِ أبي رُهْمٍ رَضيَ اللهُ عنها ناحيةَ المَناصِعِ، وهو المكانُ الذي يَقْضُون فيه حاجتَهم، وهو في آخِرِ المدينةِ مِن جِهةِ البَقيعِ، وكان مِن عادةِ النِّساءِ ألَّا يَخرُجْنَ إليه إلَّا لَيلًا، ومنه إلى اللَّيلِ الآخِرِ، وهذا تَأكيدٌ على أنَّهنَّ كنَّ لا يَخرُجْنَ نَهارًا، وذلك أستَرُ لهنَّ، وكان ذلكَ قَبْلَ أنْ يَتَّخِذَ النَّاسُ الكُنُفَ والحمَّاماتِ قَريبًا مِن بُيوتِهم، وكانوا في ذلك مِثْلَ بَقيَّةِ العَرَبِ الأُوَلِ يَقضُون حاجاتِ الإنسانِ مِن التَّبوُّلِ والتَّبرُّزِ في الصَّحراءِ في أماكنَ مَعروفةٍ، وبيْنما هما تَمشيانِ، تَعَثَّرَتْ أمُّ مِسطَحٍ في مِرْطِهَا، وهو الثَّوبُ الذي تَلبَسُه، فقالت: تَعِسَ مِسْطَحٌ، تَدْعو على ابنِها مِسطَحٍ الذي قدْ خاضَ مع النَّاسِ بالكذِبِ في أمْرِ عائشةَ، فقالتْ لها عائشةُ:" **بِئْسَ ما قُلْتِ! أتَسُبِّينَ رجُلًا شَهِدَ بَدْرًا؟!** فأخْبَرَتْها بِقَولِ أهلِ الإفْكِ وما يَخوضونَ به في عِرضِها، فكان ذلك سَببًا في مُضاعَفةِ وَجَعِها ومَرَضِها.

فلمَّا رَجَعَت إلى بَيتِ النَّبيِّ ﷺ وسَأَلَ عنها بقَولِه:" **كيف تِيكُم؟**"، بادَرَتْه عائشةُ -رَضيَ اللهُ عنها- واستَأذَنَته ﷺ أنْ تَذهَبَ إلى أبَوَيها، فأذِنَ لَها، تُريدُ بذلك أنْ تَتأكَّدَ مِن أبَوَيها عمَّا يَتحدَّثُ به النَّاسُ، فقالتْ لها أُمُّها:" **يا بُنَيَّةُ، هَوِّني** " علَى نَفْسِكِ الشَّأْنَ وما يُقالُ،" **فوَاللَّهِ لَقَلَّما كانتِ امْرَأةٌ قَطُّ وَضِيئةٌ**"، أي: جَميلةٌ وحَسناءُ،" **عندَ رَجُلٍ يُحِبُّها** " تُريدُ زَوجَها،" **ولَهَا ضَرائِرُ** " جمْعُ ضَرَّةٍ، وهي الزَّوجةُ الأُخرى لذاتِ الرَّجلِ، سُمِّيَت بذلك؛ لأنَّها تَتضرَّرُ بغَيرِها بالغَيرةِ والقَسْمِ ونحْوِ ذلك؛" **إلَّا أكْثَرْنَ عَلَيْها**"، أي: كان ذلك سَببًا في تَناوُلِها والكلامِ عليها، والمعنى: أنَّ النَّاسَ والضَّرائرَ لا يَترُكون زَوجةً مَحبوبةً إلى زَوجِها إلَّا وتكلَّموا في شَأنِها بما لا يَليقُ، تُريدُ أُمُّها بذلك التَّهوينَ عليها. فتَعجَّبَت عائشةُ رَضيَ اللهُ عنها وقالتْ:" **سُبْحانَ اللهِ! ولقَدْ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ بهذا؟!**" والمعنى: أنَّ تلك الأكاذيبَ والنَّيلَ مِن الأعراضِ لا يَنشَأُ مِن الغَيرةِ التي بيْن الضَّرائرِ ونحْوِها؛ فهو أكبَرُ مِن ذلك، فباتَتْ عائشةُ رَضيَ اللهُ عنها لَيلتَها تلك حتَّى أصْبَحْتُ وهي لا يَرْقَأُ لها دَمْعٌ، أي: لا يَنقطِعُ عنها، ولا تكْتَحِلُ بنَوْمٍ، وهو تَعبيرٌ عن عدَمِ النَّومِ مِن كَثرةِ الهمِّ والحزنِ.

وتَحْكي عائشةُ -رَضيَ اللهُ عنها- أنَّ النَّبيَّ ﷺ استَشارَ عَلِيًّا وَأُسامةَ بنَ زَيْدٍ -رَضيَ اللهُ عنهم- في فِراقِ عائشةَ -رَضيَ اللهُ عنها-" **حِينَ اسْتَلْبَثَ الوَحْيُ**"، أي: أبطَأَ نُزولُه وتَأخَّرَ، فَأمَّا أُسامةُ ﷺ فقال:" **أهْلَكَ يا رَسولَ اللَّهِ، ولَا نَعْلَمُ واللَّهِ إلَّا خَيرًا**" فأشارَ بالَّذي يَعلَمُ مِن بَراءةِ أهلِه، وأنَّه لا يَعلَمُ عن سِيرتِها وسُلوكِها إلَّا الخيرَ والصَّلاحَ، وأمَّا عَلِيٌّ ﷺ فقالَ للنَّبيِّ ﷺ مُسلِّيًا له: **يا رَسولَ اللهِ! لَم يُضَيِّقِ اللهِ عليكَ، والنِّساءُ سِواها كَثيرٌ**، إشارةً إلى طَلاقِها والزَّواجِ بغَيرِها، وإنَّما قال له عَلِيٌّ ﷺ ذلك؛ لِما رَأى ما عندَه ﷺ مِن الغمِّ والقلَقِ، ثمَّ أشار عَلِيٌّ ﷺ أنْ يَسأَلَ جاريتَها بَريرةَ عنها، وذلك أنَّ الجواريَ عادةً ما تكونُ أقرَبَ وأخبَرَ بأُمورِ سَيِّدتِها، فَدَعا رَسولُ اللهِ ﷺ بَريرةَ، وسَأَلَها عمَّا إذا رَأَت مِن عائشةَ -رَضيَ اللهُ عنها- ما يَدْعو للرِّيبةِ والشَّكِّ، فأقْسَمَت وقالت: " **ما رَأَيْتُ منها أمْرًا أغْمِصُهُ عليها قَطُّ**"، فنَفَت أنَّها رَأَت منها شَيئًا قدْ

يَعيبُها، ثمَّ أخبرَت أنَّها فتاةٌ صَغيرةُ السِّنِّ تَغفُلُ عن بَعضِ الأمورِ، فتَنامُ عَن عَجينِ أهْلِها -لبَراءتِها وطِيبِ نفْسِها- فتَأْتي "الدَّاجِنُ" -وهو كُلُّ ما يَأْلَفُ البُيوتَ شاةً أو غَيرَها- فتَأكُلُه، وفي الصَّحيحينِ أنَّها قالتْ: "**سُبحانَ اللهِ! واللهِ ما عَلِمْتُ عليها إلَّا ما يَعلَمُ الصَّائغُ على تِبرِ الذَّهبِ الأحمَرِ**"، فبَرَّأتْها مِن الفِريةِ التي افتَراها عليها المنافِقون.

ثُمَّ قامَ النَّبيُّ ﷺ عَلى المِنبَرِ "**فاستَعذَرَ**"، أي: استَنصَرَ مِمَّن آذاهُ في أهلِه، وهو عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ الذي كان كَبيرَ المُرْجِفين بهذه الفِريةِ - وكان ابنُ سَلولَ أحَدَ قادةِ ورُؤساءِ الخَزْرجِ-، وأقسَمَ أنَّه لا يَعلَمُ عن أهْلِه إلَّا خَيرًا، يُريدُ عائشةَ أو جَميعَ زَوجاتِه، وذكَرَ النَّبيُّ ﷺ صَفوانَ ﷺ بقولِه: "**وقدْ ذَكَرُوا رَجُلًا**"، أي: اتَّهَموه بالفاحشةِ،" **ما عَلِمْتُ عليه إلَّا خَيْرًا، وما كانَ يَدْخُلُ علَى أهْلِي إلَّا مَعِي**"، وهذا كِنايةٌ عن حُسنِ خُلقِ صَفوانَ ﷺ، وأنَّه ممَّن يُؤتَمَنُ ويُوثَقُ به، وحُسْنِ السِّيرةِ والسُّمعةِ عندَه وعِندَ النَّاسِ.

وكانت الأنصارُ تَتكوَّنُ مِن قَبيلتَي الأَوسِ والخَزْرجِ، وكان سَعدُ بنُ مُعاذٍ ﷺ سيِّدَ الأَوسِ، وسعْدُ بنُ عُبادةَ ﷺ سيِّدَ الخَزْرَجِ، فلمَّا سَمِع سَعدُ بنُ مُعاذٍ ﷺ قَولَ النَّبيِّ ﷺ، قامَ وأقسَمَ لرَسولِ اللهِ ﷺ أنَّه يَنتقِمُ له مِمَّن آذاهُ؛ إنْ كانَ مِن الأوْسِ قَتَلوه، ثمَّ قال:" **وإنْ كانَ مِن إخْوَانِنَا مِنَ الخَزْرَجِ أمَرْتَنَا، فَفَعَلْنَا فيه أمْرَكَ**"، وهذا مِن أدَبِ سعْدِ بنِ مُعاذٍ ﷺ ومَعرفتِه لحُدودِ سِيادتِه؛ أنْ تَوقَّفَ عن التَّصريحِ بالقتْلِ فيهم كما فَعَلَ في حقِّ مَن يَسُودُهم، وترَكَ الحكْمَ فيه لرَسولِ اللهِ ﷺ مع التَّعهُّدِ أنْ يُقيمَ فيه ما يَرْضى به النَّبيُّ ﷺ، فأخَذَت سعْدَ ابنَ عُبادةَ ﷺ - وكان مِن كِبارِ الصَّحابةِ وفُضلائِهم- الحَمَّيةُ -وهي التَّعصُّبُ لغيرِ الحقِّ- وَرَدَّ على سَعدِ ابنِ مُعاذٍ كَلمتَه، وقال:" **كَذَبْتَ**" أي: أخطَأْتَ، والعرَبُ تَقولُ لمَن أخطَأَ: كذَبْتَ، وأقسَمَ "لَعَمْرُ اللَّهِ، لا تَقْتُلُهُ، ولَا تَقْدِرُ علَى ذلكَ"؛ لأنَّه رَأى أنَّه ليس مِن حَقِّ سَعدِ بنِ مُعاذٍ أنْ يَتدخَّلَ في أمرٍ يَتعلَّقُ بالخَزْرجِ، فَقامَ أُسَيدُ بنُ حُضَيرٍ ﷺ -وكان زَعيمًا مِن زُعماءِ الأَوسِ- فَقال لسَعدِ بنِ عُبادةَ:" **كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللهِ، واللهِ لَنَقتُلَنَّه**" نُصرةً لرَسولِ اللهِ ﷺ؛" **فإنَّكَ مُنافِقٌ تُجادِلُ عنِ المُنافِقينَ**"، وهذا مِن التَّلاسُنِ بيْنَهم، ولم يَقْصِدْ بذلِك وصْفَه بالنِّفاقِ حَقيقةً، وإنَّما قالَ ذلِك للمُبالَغةِ في زَجْرِه، ثُمَّ إنَّ هذا السِّبابَ لا يُقامُ له وَزنٌ؛ لأنَّه صدَرَ في حالةِ غضَبٍ.

قالتْ عائشةُ -رَضيَ اللهُ عنها-:" **فَثارَ الحَيَّانِ الأوْسُ والخَزْرَجُ**"، أي: عَلَت أصْواتُهم ومُجادلاتُهم، "حتَّى هَمُّوا" بقِتالِ بَعضِهم بَعضًا، فنَزَلَ رَسولُ اللهِ ﷺ مِن فوقِ المنبرِ، فلَمْ يَزَلْ رَسولُ اللهِ ﷺ يَتلطَّفُ بهم ليَسكُتوا، حتَّى سَكَتوا، وسَكَتَ ﷺ.

وظَلَّت عائشةُ تَبْكي ولا يَجِفُّ لها دَمْعٌ، ولا تَنامُ، وجاء أبَواها إلى المكانِ الَّذي هي فيه مِن بَيتِهما، وظَلَّت تَبْكي لَيلَتَيْنِ ويَومًا حتَّى ظنَّتْ أنَّ البُكاءَ فالِقٌ كَبِدَها، أي: يَشُقُّه؛ وذلك لأنَّ الحزنَ وشِدَّتَه أكثَرُ ما يَضُرُّ في الإنسانِ كَبِدَه، مُؤثِّرًا على باقي أعضاءِ الجسَدِ، فَزارَتْها امْرَأةٌ مِنَ الأنْصارِ، فجَعَلَت تَبْكي مَعها مِن

بابِ المُواساةِ، وبيْنما همْ على تلك الحالِ، إذْ دَخَل عليهم رَسولُ اللهِ ﷺ فَجالَسَهم، ولمْ يكُنْ جالَسَها مِن وقْتِ أنِ اتُّهِمَت وقُذِفَت، وقَدْ ظلَّ النَّبيُّ ﷺ شهْرًا لا يُوحَى إلَيهِ في شَأْنِ عائشةِ -رَضيَ اللهُ عنها- شَيءٌ، أي: ليَبُتَّ في الأمرِ ويَقطَعَه، ويُخبِرَه بحَقيقةِ الأمرِ، وإنْ كان يُوحى إليه في أُمورٍ أُخرى.

ثمَّ تَشهَّدَ النَّبيُّ ﷺ بالشَّهادتينِ، ثمَّ سَأَلَ عائشةَ -رَضيَ اللهُ عنها- عمَّا بَلَغَه وأُشِيعَ عنها، وقال: "**فإنْ كُنْتِ بَرِيئَةً**" غيرَ مُتَّهمةٍ، فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ سيَكفُلُ تَبرئتَك ويُظهِرُها، "**وإنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بذَنْبٍ**" مِن الإلمامِ، وهو النُّزولُ النَّادرُ غيرُ المتكرِّرِ، والمعْنى: فعَلْتِ ذَنْبًا ليس مِن عادتِك، "**فاسْتَغْفِرِي اللهَ وتُوبِي إلَيهِ؛ فإنَّ العَبْدَ إذا اعْتَرَفَ بذَنْبِه ثمَّ تابَ، تابَ اللهُ عليه**"، فلَمَّا انْتَهى رَسولُ اللَّهِ ﷺ مِن كَلامِه، جفَّ دَمْعُها وتوقَّفَ؛ لهَولِ ما سَمِعَت مِن النَّبيِّ ﷺ، وطَلَبَت مِن أبِيها وأُمِّها أنْ يُجِيبا عنها رَسولَ اللَّهِ ﷺ، ويُدافِعا عنها، فقَالَا لها: **واللهِ ما نَدْرِي ما نَقُولُ لِرَسولِ اللَّهِ ﷺ**؛ وذلك لأنَّهما في مَوقفٍ يَحتارُ له أعظَمُ الرِّجالِ؛ فرَسولُ اللهِ ﷺ في جانبٍ، ومَقامُه فَوقَ كلِّ المقاماتِ، وفي الجانِبِ الآخَرِ ابنتُهما الَّتي اتُّهِمَت بفاحشةٍ شَنيعةٍ.

وهنا رَدَّتْ عائشةُ -رَضيَ اللهُ عنها- عن نفْسِها مع صِغَرِ سِنِّها آنذاكَ، وقولُها: "**لا أَقْرَأُ كثِيرًا مِن القُرآنِ**" قالتْ هذا تَوطِئةً لعُذْرِها؛ لكَونِها لم تَستحضِرِ اسمَ يَعقوبَ -عليه السَّلامُ-، فقارَنَت حالَها بحالِ نَبيِّ اللهِ يَعقوبَ وأذَى أبنائِه له ولابنِه يُوسُفَ عليهما السَّلامُ، ثمَّ استَرْسَلَت وذكَرَتْ أنَّ ما قِيل عنها وما قُذِفت به مع صَفوانَ رَضيَ اللهُ عنهما قدِ استَقرَّ في نُفوسِ كلِّ مَن سَمِعه حتَّى إنَّ بَعضَهم صدَّقَه دونَ بيِّنةٍ، فإنْ تَبرَّأتْ منه - واللهُ يَعلَمُ ذلك- لم يُصدِّقوها، وإنِ اعتَرَفَت به صدَّقوها، ولا يَسَعُها في هذا الموقفِ إلَّا الصَّبرُ والتَّسليمُ لأمرِ اللهِ وانتظارُ الفرَجِ والبَراءةِ منه عزَّ وجلَّ، كما قال نَبيُّ اللهِ يَعقوبُ -عليه السَّلامُ-: ﴿**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ**﴾ (يوسف: ١٨)، فهو وحْدَه الذي يُبرِّئُها دونَ غيرِه، وهو سُبحانه الذي يُدافِعُ عنها دونَ سِواهُ، ثمَّ رَجَعَت إلى فِراشِها مُتحوِّلةً عنهم، وما كانتْ تَظُنُّ أنَّ اللهَ سيُنزِلُ بَراءتَها مِن فوقِ سَبْعِ سَمواتٍ، وقولُها: "**ولَأَنَا أَحْقَرُ في نَفْسِي**"، أي: تَرى في نفْسِها أنَّها أقلُّ مِن أنْ يَنزِلَ القرآنُ بأمْرِها، وأكثَرُ ما كانتْ تَرْجُوه وتَأمَلُه أنْ يَرى رَسولُ اللهِ ﷺ رُؤْيَا في نَومِه يُبرِّئُها اللهُ عزَّ وجلَّ فيها، ثمَّ قالت: "**فَواللهِ ما رامَ مَجْلِسَه**"، أي: لم يُفارِقْ رَسولُ اللهِ ﷺ مَجلِسَه هذا، ولم يَخرُجْ أحَدٌ مِن أهْلِ البَيْتِ، حتَّى أُوحِيَ إلى النَّبيِّ ﷺ، فأصابَه ما كان يُصيبُه أثناءَ نُزولِ الوحْيِ حتَّى إنَّ العرَقَ "**لَيَتَحَدَّرُ منه مِثْلُ الجُمَانِ**"، أي: يَسيلُ مِن وَجْهِه الشَّريفِ مِثلَ حَبَّاتِ اللُّؤلؤِ، وذلك في اليومِ شَديدِ البُرودةِ، "**فَلَمَّا سُرِّيَ**"، أي: انكشَفَ وارتَفَعَ الوحْيُ عن رَسولِ اللهِ ﷺ وهو على حالٍ مِن السُّرورِ والضَّحِكِ، وكان أوَّلَ ما تكلَّمَ به أنْ ذَكَرَ لعائشةَ بَراءتَها وأنْ تَحمَدَ اللهَ على ذلك، وأمَرَتْها أُمُّها أنْ تَقومَ إلى رَسولِ اللهِ ﷺ لتَشكُرَه على بُشراهُ لها، فقالت عائشةُ ﷺ: "**لا واللهِ، لا أَقُومُ إلَيهِ، ولا أَحْمَدُ إلَّا اللهَ**"؛ وذلك لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ هو الذي بَرَّأها.

وأنْزَلَ اللهُ تعالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) لَوْلَا جَاؤُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (النور: ١١-٢٠)

فسَمَّى اللهُ عزَّ وجلَّ هذا القذْفَ:" إفكًا" إعلانًا عن كَذِبِهم وافترائِهم فيه، ثمَّ هدَّدَهم بالعُقوبةِ عليه في الدُّنيا والآخرةِ.

وكانَ أبو بَكرٍ ﷺ يُنْفِقُ على مِسْطَحِ بنِ أُثاثةَ ﷺ؛ لِقَرابَتِه منه، فأُمُّ مِسطَحٍ سَلْمى كانت بِنتَ خالةِ أبي بَكرٍ الصِّدِّيقِ، وكان مِسطَحٌ مِن الذين خاضُوا في القولِ بالإفكِ، فغَضِبَ وقال: واللهِ لا أُنْفِقُ على مِسْطَحٍ شَيئًا أبَدًا بعْدَما قال لِعائشةَ، فأنْزَلَ اللهُ تعالَى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، أي: لا يَحلِفوا على ألَّا يُعطُوا أقاربَهم مِن أموالِهِم؛ لأنَّهم أساؤوا إليهم، ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (النور: ٢٢)، فقال أبو بَكْرٍ: بَلَى واللهِ إنِّي لَأُحِبُّ أنْ يَغْفِرَ اللهُ لِي، فأعاد إلى مِسطَحٍ ما كان يُعطِيه، وكفَّرَ عن يَمينِه.

وتُكمِلُ عائِشةُ رَضيَ اللهُ عنها أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ كان قدْ سَألَ زَينَبَ بِنتَ جَحْشٍ أُمَّ المُؤمِنينَ -رَضيَ اللهُ عنها- عَن أمْرِ عائشةَ، فقالَت زَينَبُ: **يا رَسولَ اللهِ، أَحْمي سَمْعي** عَن أن أقولَ: "سَمِعتُ" وَلَم أسْمَع، **وبَصَري** مِن أنْ أقولَ: "نَظَرتُ" وَلَم أنظُرْ، واللهِ ما عَلِمتُ عليْها إلَّا خَيرًا. قالَت عائشةُ رَضيَ اللهُ عنها: وهيَ -أي: زَينَبُ رَضيَ اللهُ عنها- الَّتي كانَت **"تُساميني"**، أي: تُضاهيني وَتُفاخِرني بِجَمالِها وَمَكانَتِها عِندَ النَّبيِّ ﷺ مِن أزْواجِ النَّبيِّ ﷺ، فَعَصَمَها اللهُ وحَفِظَها بالوَرَعِ مِن أنْ تَخوضَ في الباطِلِ مع مَن خاضُوا.

(الدرر السنية)

الدروس والعبر المستفادة من حادثة الإفك:

لقد كانت حادثة الإفك حلقة من سلسلة حلقات الإيذاء والمحن التي لقيها رسول الله ﷺ، وكان من فضل الله ورحمته أن كشف زيفها وبطلانها، وأبقى دروسها وفوائدها، لتكون عبرة وعظة للأمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وكل ذلك من الخير الذي كشفه الله في ثنايا هذا الحادث، مع ما فيه من ابتلاء وآلام، **كما قال الله تعالى:** ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ (النور:١١)

١- أول هذه الدروس: أنه من المحن تأتي المنح:

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ (النور:١١)

وَالْخِطَاب فِي هذه الآية لَمَنْ سَاءَهُ ذَلِكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَخَاصَّةً رسول الله ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ وَعَائِشَةَ وَصَفْوَانَ ابنِ الْمُعَطِّلِ -رضي الله عنهم-، وَمَعْنَى كونه خَيْرًا لَهُمْ أَنَّهُمُ اكْتَسَبُوا فيه الثَّوَابَ الْعَظيم لأنهُ كَانَ بَلاءَ مُبينًا، وَمِحنَّةَ ظَاهِرَةً، وَأنهُ نَزَلَتْ فيه ثماني عشرة آية كل واحدَةً مِنْهَا مُسْتَقلة بمَا هُوَ تَعظِيمُ لشَأن رَسُول الله ﷺ وَتَسْلِيَةٌ لَهُ، وَتَنْزِيهُ لأُمِّ الْمُؤْمِنِينَ -رَضِيَ اللهُ عنها-، وتطهير لأهل البيت، وتهويل لمن تكلم في ذلكَ، أَوْ سَمع به فلم تمجه أذناه. **(الكشاف للزمخشري)**

وأيضًا حدث لعائشة -رَضِيَ اللهُ عنها- موقف شبيه بهذا، وكان بسببه نزلت آية التيمم تخفيفًا للأمة.

فقد أخرج البخاري ومسلم من حديث عائشة -رَضِيَ اللهُ عنها- قالت: **" خَرَجْنَا مع رَسولِ اللَّهِ ﷺ في بَعْضِ أسْفَارِهِ، حتَّى إذَا كُنَّا بالبَيْدَاءِ، أوْ بذَاتِ الجَيْشِ، انْقَطَعَ عِقْدٌ لِي، فأقَامَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ علَى التِمَاسِهِ، وأقَامَ النَّاسُ معهُ، ولَيْسُوا علَى مَاءٍ، وليسَ معهُمْ مَاءٌ، فأتَى النَّاسُ إلى أبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ، فَقالوا: ألَا ترَى ما صَنَعَتْ عَائِشَةُ، أقَامَتْ برَسولِ اللَّهِ ﷺ وبِالنَّاسِ، ولَيْسُوا علَى مَاءٍ، وليسَ معهُمْ مَاءٌ؟ فَجَاءَ أبو بَكْرٍ ورَسولُ اللَّهِ ﷺ واضِعٌ رَأْسَهُ علَى فَخِذِي قدْ نَامَ، فَقالَ: حَبَسْتِ رَسولَ اللَّهِ ﷺ والنَّاسَ ولَيْسُوا علَى مَاءٍ وليسَ معهُمْ مَاءٌ، قالَتْ عَائِشَةُ: فَعَاتَبَنِي أبو بَكْرٍ، وقالَ ما شَاءَ اللَّهُ أنْ يَقُولَ، وجَعَلَ يَطْعُنُنِي بيَدِهِ في خَاصِرَتِي، ولَا يَمْنَعُنِي مِنَ التَّحَرُّكِ إلَّا مَكَانُ رَسولِ اللَّهِ ﷺ علَى فَخِذِي، فَقَامَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ حتَّى أصْبَحَ علَى غيرِ مَاءٍ فأنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ التَّيَمُّمِ: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ (المائدة:٦) فَقالَ أُسَيْدُ بنُ حُضَيْرٍ ﷺ: ما هي بأوَّلِ بَرَكَتِكُمْ يا آلَ أبِي بَكْرٍ، - *وفي رواية عند البخاري:* أنه ﷺ قال: جزاكِ الله خيرًا، فوالله ما نزل بكِ أمرٌ قط إلا جعل الله لك منه مخرجًا، وجعل فيه للمسلمين بركة. قالَتْ: فَبَعَثْنَا البَعِيرَ الذي كُنْتُ عليه فَإِذَا العِقْدُ تَحْتَهُ ".

٢- خطورة الشائعات:

ممَّا لاشك فيه أن الشائعات لها دور خطير في زعزعة أمن الناس واستقرارهم، فهي تثير القلاقل والفتن، التي تفرق بين المسلمين، وتوقد نار الشحناء والبغضاء بينهم، وتعمل على نشر الأكاذيب والترويج للباطل؛ فتقلب الأمور، وتبدِّل الأحوال، والسبب أن الناس ينقلُون الكلام دون تثبُّت من صحته، ويظنُّون أن هذا الأمر هين، ولكنه عند الله عظيم.

قال تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ (النور: ١٥)

فلابد من التبيُّن في الأمر، والتَّثبُّت من الخبر قبل نقله والترويج له، وهذا مطلب كل إنسان عاقل، حتى يستبين له الحق، ويقف على حقيقة الأمر، وهذا ما أمرنا به القرآن الكريم، **حيث قال رب العالمين:**

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (الحجرات: ٦)

قال ابن كثير-رحمه الله- في تفسير هذه الآية: "يأمر تعالى بالتَّثبُّت من خبر الفاسق ليحتاط له؛ لئلا يحكم بقوله فيكون في نفس الأمر كاذباً أو مخطئاً، فيكون الحاكم بقوله قد اقتفى وراءه، وقد نهى الله عن اتباع سبيل المفسدين". اهـ

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (النساء: ٨٣)

قال ابن كثير-رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ﴾ إنكار على مَن يبادر إلى الأمور قبل تحقيقها، فيخبر بها ويغشيها وينشرها، وقد لا يكون لها صحة

ويقول الشيخ عبد الرحمن السعدي-رحمه الله- في" تفسيره تيسير الكريم الرحمن ص: ١٩٠":

"هذا تأديب من الله لعباده عن فعلهم هذا غير اللائق، وأنه ينبغي لهم إذا جاءهم أمر من الأمور المهمة والمصالح العامة ممَّا يتعلق بالأمن وسرور المؤمنين، أو الخوف الذي فيه مصيبة عليهم أن يتثبتوا، ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر، بل يردُّونه إلى رسول الله ﷺ، وإلى أولي الأمر منهم، أهل الرأي والعلم والنصح والعقل والرزانة الذين يعرفون الأمور، ويعرفون المصالح وضدها". اهـ

- وقد حذَّر النبي ﷺ من العجلة وعدم التثبت.

فقد أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: **" كفى بالمرء كذباً أن يُحدِّث بكل ما سمع"**

- وفي "سنن أبي داود" بسند صحيح عن حذيفة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **"بئس مطية الرجل زعموا ".** (الصحيحة: ٨٦٦)

فالإشاعة تأثر على الفرد والأسرة والمجتمع، فكم من أسر تفككت من جراء هذه الإشاعات، وكم من بيوت هدمت، وكم من أموال ضيعت وأطفال شردت كل ذلك من أجل إشاعة من مُنافق أو كذاب. وقد أوضح الإسلام من خلال الآيات الكريمات هذا الأثر فنجد من تتبعنا لحادثة الإفك، كيف أثرت الإشاعة على أفضل وأكرم أسرة على وجه الأرض.

والمجتمع المسلم المتماسك كاد أن ينقسم وكادت أن تحدث الفتنة بين الأوس والخزرج بسبب عرض سعد ابن معاذ ﷺ من الأوس تأديب من قال بالإفك من المنافقين وعلى رأسهم رأس المنافقين عبد الله ابن أبي ابن سلول واعترض سعد بن عبادة ﷺ وهو سيد الخزرج على ذلك لولا أن رسول الله ﷺ وعظهم وهو المصاب في نفسه وأهله ومنع الفتنة من وقوعها، وكذلك أثرت هذه الإشاعة على علاقة الرحم التي كانت بين أبي بكرﷺ ومسطح وكان من أرحام أبي بكرﷺ وممن كان يحسن إليه الصديق ﷺ. لذا لزامًا علينا ألا ننقل كلامًا نُقل إلينا دون أن نتثبت منه.

يقول الحسن البصري–رحمه الله–: " ذكر الغير بما يكره ثلاثة: الغِيبة، والبهتان، والإفك: وكل في كتاب الله ﷻ، فالغِيبة أن تقول ما فيه، والبهتان أن تقول ما ليس فيه، والإفك أن تقول ما بلغك عنه[دون تثبت]. **(تفسير القرطبي: ١٦/٣٣٥)،(الإحياء: ٣/١٩٣)**

وقد أكدت هذه المحنة على وجوب التثبت من الأقوال قبل نشرها، والتأكد من صحتها، حتى لا يقع الإنسان في الكذب والظلم، ويكون سببا في نشر الإشاعات والفواحش، وعلى هذا ينبغي أن تصان أعراض الناس ولا نخوض فيما لا علم لنا به ولا بينة. **كما قال تعالى:** ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ(١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ (النور:١٥،١٦).

ولا بد أن نعلم جميعًا أن أي كلمة تخرج من أفواهنا هي مكتوبة مسطرة في صحيفتنا.

قال تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ (آل عمران:١٨١)

وعلينا أن نتذكر جميعًا قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق:١٨) ومعنى ﴿رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾: يعني مراقب معد لذلك، لا يترك كلمة تفلت.

قال ابن دقيق العيد–رحمه الله–: " ما تكلَّمتُ بكلمة، ولا فعلتُ فعلًا، إلا وأعددتُ له جوابًا بين يدي الله–عز وجل–". **(شذرات الذهب:٦/٥)، (طبقات الشافعية للسبكي: ٩/٢١٢)**

وقال تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (الإسراء:٣٦)

ولما قال معاذ ﷺ: يا رسول الله! وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: ثَكَلَتْكَ أُمُّك[1]، وهل يَكُبُّ الناسَ في النار على وجوههم – أو قال: على مناخرهم – إلا حصائدُ ألسنتهم[2]؟"

فعلينا أن نفعل في مثل هذه المواقف ما فعلته زينب بنت جحش–رَضِيَ اللهُ عنها–عندما سألها النبي ﷺ عما يقال عن عائشة –رَضِيَ اللهُ عنها–، فقالت: **أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِلَّا خَيْرًا**". أَحْمي سَمْعي عَن أن أقولَ:" سَمِعتُ" وَلَم أسْمَع، وأحمي بَصَري مِن أنْ أقولَ:" رأيتُ" وَلَم أر، واللهِ ما عَلِمتُ عليْها إلَّا خَيرًا.

وانظر كذلك إلى موقف أبي أيوب الأنصاري ﷺ وزوجته فيما يقال عن عائشة –رَضِيَ اللهُ عنها–. وقد ذُكِر أن أبا أيوب الأنصاري –رضي الله عنه– قال لامرأته لما بلغه خبر الإفك:" ألا ترين ما يُقال؟! فقالت له: لو كنت بدل صفوان أكنت تظن بحرمة رسول الله ﷺ سوءًا؟ قال: لا. قالت: ولو كنتُ أنا بدل عائشة ما خنتُ رسول الله ﷺ فعائشة خير مني، وصفوان خير منك. قال: نعم ".

وهذا ما قاله رب العالمين في كتابه الكريم: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ (النور:١٢)

٣- أظهرت هذه الحادثة صدق نبوة الرسول ﷺ:

وأن الوحي ليس شعورًا نفسيًا أو إلهامًا، كما أنه ليس شيئًا خاضعًا لإرادته ورغبته ﷺ، مما يدعيه من يشكك في الإسلام ويلبس على المسلمين، من أعداء الإسلام ومن سار وراءهم، إذ لو كان الأمر كذلك، لكان من السهل عليه ﷺ أن ينهي هذه المحنة التي آذته وآذت زوجته والمسلمين من يوم وقوعها، لكنه لم يفعل، لأنه لا يملك ذلك.. فماذا كان يمنعه – لو أن أمر القرآن بيده – أن ينطق بهذه الآيات من بداية هذا الإفك وهذه الإشاعة الكاذبة، ليحمي بها عرضه، ويقطع ألسنة الكاذبين؟، ولكنه ما كان ليترك الكذب على الناس ويكذب على الله، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ(٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ(٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ(٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ (الحاقة:٤٤-٤٧).. وهكذا شاء الله أن تكون هذه المحنة دليلًا كبيرًا على بشرية الرسول ﷺ ونبوته في وقت واحد.

١- ثكلتك أمك: فقدتك، من الألفاظ التي جرت على ألسنة العرب ولا يقصدون بها الدعاء، كقولهم:" تربت يداك، أو لا أبا لك، أو قاتلك الله... وهكذا".

٢- حصائدُ ألسنتهم: أي ما يقتطعه له من الكلام الذي لا خير فيه، وشبَّه النبي ﷺ اللسان بالمنجل الذي يحصد النافع والضار، من غير تفريق، فكذلك اللسان.

٤- الحكمة من تأخير نزول الوحي على رسول الله ﷺ شهراً:

أورد العلامة ابن القيم-رحمه الله- الحكمة من ذلك فقال: " فإن قيل: فما بالُ رسول الله ﷺ توقَّفَ في أمرها، وسأل عنها وبحث، واستشار، وهو أعرفُ بالله وبمنزلته عنده، وبما يليق به، وهلا قال: سُبحانَكَ هذا بُهتان عظيم، كما قاله فضلاء الصحابة؟

فالجواب: إن هذا من تمام الحِكم الباهرة التي جعل الله هذه القصةَ سَبَبًا لها وامتحانًا وابتلاءً لرسوله ولجميع الأمة إلى يوم القيامة، ليرفع بهذه أقوامًا، ويضع بِهَا آخَرِينَ، ويَزِيدَ الله الذين اهتدوا هدى وإيمانًا، ولا يزيد الظالمين إلا خسارًا، واقتضى تمام الامتحان والابتلاء أن حُبس عن رسول الله ﷺ الوحي شهرًا في شأنها، لا يُوحى إليه في ذلك شيء لتتم حكمته التي قدّرها وقضَاهَا وتظهر على أكمل الوجوه، ويزداد المؤمنون الصادِقُونَ إيمانًا وثباتًا على العدل والصدق، وحسن الظن بالله ورسوله، وأهل بيته، والصَّدِّيقين من عباده، ويزداد المنافقون إفكًا ونفاقا، ويُظهر لرسوله وللمؤمنين سرائرهم، ولتتم العبودية المرادة من الصديقة وأبويها، وتتم نعمة الله عليهم، ولتشتد الفاقةُ والرغبة منها ومن أبويها، والافتقار إلى الله والذلُّ له، وحُسن الظنِّ بِه، والرَّجَاء لَه، ولينقطع رجاؤها من المخلوقين، وتيأس من حصول النّصرة والفرج على يد أحد من الخلق، ولهذا وقت هذا المقام حقَّه، لما قال لها أبواها: قومي إليه، وقد أنزل الله عليه براءتها، فقالت: والله لا أقومُ إليه، ولا أَحْمَدُ إلا الله، هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ براءتي.

وأيضًا فكان من حكم حبس الوحى شهرًا، أن القضية مُحِّصَتْ وتمحَّضت، واستشرفت قلوب المؤمنين أعظم استشراف إلى ما يُوحيه الله إلى رسوله فيها، وتطلعت إلى ذلك غاية التطلُّع، فوافى الوحي أحوج ما كان إليه رسولُ الله ﷺ، وأهل بيته، والصديق وأهله، وأصحابه والمؤمنون، فورد عليهم ورود الغيث على الأرضِ أحوج ما كانت إليه، فوقع منهم أعظم موقع وألطفَه، وسُرُّوا به أتم السرور، وحصل لهم به غايه الهناء، فلو أطلع الله رسوله على حقيقة الحال من أول وهلة، وأنزل الوحي على الفور بذلك؛ لفاتت هذه الحكم وأضعافها بل أضعاف أضعافها.

٥- وقفة: هل شك النبي ﷺ في زوجته عائشة -رَضِيَ اللهُ عنها-؟

الجواب: بداية يجب أن نعلم أن النبي ﷺ لم يظن قط وقوع الفاحشة من عائشة -رَضِيَ اللهُ عنها-، وإنما كان قصده بقوله ﷺ:" **إن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله** ": هو احتمال وقوع الصغائر لا الفاحشة ".

قال ابن العربي-رحمه الله- في "عارضة الأحوذي:١١/٥٢ ": " قول النبي ﷺ:" **يا عائشة! إن كنت قارفت أو ظلمت**": لم يرد به النبي ﷺ قط أنه الفاحشة، ومن قال ذلك فقد كفر كفرًا مبينًا، فإنه ما بغت امرأة نبي قط، وما كان الله ليسلط علي فراش رسوله ﷺ من يلطخه، وهو قد صانه عن أن تنكح أزواجه من بعده، فكيف من أن يتمكن من الفاحشة فيهن؟". اهـ

وأما مسألة هل حصل للنبي ﷺ نوع شك فيما قاله أهل الإفك؟ فهذه المسألة فيها قولان لأهل العلم؛ مع اتِّفاقِهم على أنَّه لم يَجزِمْ بالرِّيبةِ:

القول الأول: يرى هؤلاء أن النبي ﷺ لم يشك قط في عائشة -رَضِيَ اللهُ عنها-، وأنه كان يعلم براءتها، لعلمه ببراءة نساء الأنبياء عن الوقوع في الفاحشة، ولعلمه بما عليه عائشة -رَضِيَ اللهُ عنها-، إلا أنه ﷺ لما كان لا يجوز أن يحكم لنفسه، ولعلمه أنه لا يكفي حكمه وقوله في عائشة -رَضِيَ اللهُ عنها- في قطع إفك الكذابين؛ لذا انتظر نزول الوحي ليكون أقطع للأمر.

قال ابن حجر-رحمه الله- في" فتح الباري:٨/٤٨٠ " في شرحه لحديث الإفك: " وَفِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ لَا يَحْكُمُ لِنَفْسِهِ إِلَّا بَعْدَ نُزُولِ الْوَحْيِ، لِأَنَّهُ ﷺ لَمْ يَجْزِمْ فِي الْقِصَّةِ بِشَيْءٍ قَبْلَ نُزُولِ الْوَحْيِ ". اهـ

ومن المعلوم كذلك أن نساء الأنبياء ليس فيهن بغي، كما قالت طائفة من السلف: ما بغت امرأة نبي قط، لأن في ذلك من العار بالأنبياء، ما يجب نفيه.

القول الثاني: أن النَّبيُّ ﷺ حَصَلَ له نَوعُ شَكٍّ، والدَّليلُ على ذلك: أنَّه لما استبطأ الوحي استشارَ في طَلاقِها عليًّا وأُسامةَ، وسَأَلَ النَّبيُّ ﷺ بَريرةَ؛ فسُؤالُه لِبَريرةَ واستشارتُه لعلِيٍّ وأُسامةَ: دَليلٌ على حُصولِ الشَّكِّ فيها، مع رجحان براءتها عنده، إلا أنه لم يتيقن ذلك إلا بعد نزول الوحي، والنبي ﷺ يعلم أن حسن الظن لا يحسم القيل والقال.

قال شيخ الإسلام ابن تيميه-رحمه الله- في" الرد على البكري:٢/٦٥٤": " وقد تنازع الناس في النبي ﷺ هل كان يعلم براءة عائشة-رضي الله عنها- قبل نزول الوحي، مع اتفاقهم على أنه لم يجزم بالريبة. فمن الناس من قال يعلم براءتها، وكذلك علي ﷺ، ولكن لخوض الناس فيها ورميها بالإفك: توقف.

وقال آخَرون: إنَّ اللهَ سُبحانه أحبَّ أنْ يُظهِرَ مَنزِلةَ رَسولِه وأهْلِ بَيتِه عندَه وكَرامتهم عليه، وأنْ يُخرِجَ رَسولَه عن هذه القَضيَّةِ، ويَتولَّى هو بنفْسِه الدِّفاعَ والمنافَحةَ عنه، والرَّدَّ على أعدائِه، وذَمَّهم وعَيْبَهم بأمْرٍ لا يَكونُ له فيه عمَلٌ ولا يُنسَبُ إليه، بلْ يكونُ هو وحْدَه المتولِّيَ لذلك، وأيضًا فإنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ كان هو المقصودَ بالأَذى، والتي رُمِيَت زَوجتُه، فلَمْ يكُنْ يَليقُ به أنْ يَشهَدَ ببَراءتِها مع عِلمِه أو ظَنِّه الظَّنَّ المقارِبَ للعِلمِ ببَراءتِها، ولم يَظُنَّ بها سُوءًا قطُّ وحاشاهُ وحاشاها، ولذلك لمَّا استَعذَرَ مِن أهْلِ الإفكِ قال:" **مَنْ يَعْذُرُنِي مِنْ رَجُلٍ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِي، فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي**"، فكان عندَه مِن القرائنِ التي تَشهَدُ ببَراءةِ الصِّدِّيقةِ أكثَرَ ممَّا عندَ المؤمنينَ، ولكنْ لِكمالِ صَبْرِه وثَباتِه ورِفْقِه، وحُسْنِ ظنِّه برَبِّه وثِقتِه به؛ وَفَّى مَقامِ الصَّبرِ والثَّباتِ وحُسْنِ الظَّنِّ باللهِ حقَّه حتَّى جاءَهُ الوحْيُ بما أقَرَّ عَينَه، وسَرَّ قلْبَه، وعَظَّمَ قَدْرَه، وظَهَرَ لأُمَّتِه احتفالُ ربِّه به واعتِناؤه بشَأنِه.

٦- سؤال: لما جاء الوحي ببراءة عائشة-رضي الله عنها- لماذا أمر رسول الله ﷺ بكل من صرح بالإفك، فَحُدَّ ثمانين جلدة[١]، ولم يُحِد الخبيثُ عبد الله بن أبيّ، مع أنه رأس الإفك؟

يجيب عن هذا ابن القيم-رحمه الله- فيقول: لأن الحدود تخفيف عن أهلها وكفارة والخبيث(عبد الله بن أبيّ ابن سلول) ليس أهلًا لذلك، وقد وعده الله بالعذاب العظيم في الآخرة، فيكفيه ذلك عن الحد. **وقيل:** بل كان يستوشي الحديث ويجمعه ويحكيه، ويُخرجه في قوالب من لا يُنسب إليه، **وقيل:** الحد لا يثبت إلا بالإقرار، أو ببينة وهو لم يقر بالقذف ولا شهد به عليه أحد، فإنه إنما كان يذكره بين أصحابه، ولم يشهدوا عليه، ولم يكن يذكره بين المؤمنين. **وقيل:** حد القذف حق الآدمي، لا يستوفى إلا بمطالبته، وإن قيل: إنه حق لله، فلا بد من مطالبة المقذوف، وعائشة لم تطالب به عبد الله بن أبيّ ابن سلول. **وقيل:** بل ترك حده لمصلحة هي أعظم من إقامته، كما ترك قتله مع ظهور نفاقه، وتكلمه بما يوجب قتله مرارًا، وهي تأليف قومه، وعدم تنفيرهم عن الإسلام، فإنه كان مطاعًا فيهم رئيسًا عليهم، فلم تُؤمن إثارة الفتنة في حده، ولعله تُركَ لهذِهِ الوجوه كلُّهَا. فجلد مسطح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، وحَمْنَة بنت جحش، وهؤلاء من المؤمنين الصادقين تطهيرًا لهم وتكفيرًا، وترك عبد الله بن أبي لما ذكر من أسباب. اهـ

– وفيه تأخير الحدّ عمن يُخشى من إيقاعه به الفتنة، نبه على ذلك ابن بطالٍ مُستندًا إلى أن عبد الله بن أبي ابن سلولٍ كان ممن قذف عائشة، ولم يقع في الحديث أنه ممن حُدَّ، وتعقبه عياضٌ بأنه لم يثبت أنه قذف، بل الذي ثبت أنه كان يستخرجه، ويستوشيه. **(فتح الباري:٩/٤٢٤).**

١- ومن الحكم والفوائد المترتبة على هذه الحادثة، تشريع حد القذف وأهميته في المحافظة على أعراض المسلمين، فعندما وقعت حادثة الإفك أراد الله عز وجل أن يشرع بعض الأحكام التي تساهم في المحافظة على أعراض المؤمنين..
ومن المعلوم أن الإسلام حرم الزنا، وأوجب العقوبة على فاعله، وحرم أيضًا كل الأسباب المؤدية إليه، من تبرج وسفور، واختلاط ونظرة.. ومنها إشاعة الفاحشة، ومن ثم حرم الإسلام القذف، وأوجب على من اتهم عفيفًا أو عفيفة، بالزنا - وهم منه براء- حَد القذف، وهو الجلد ثمانين جلدة وعدم قبول شهادته إلا بعد توبته توبة صادقة نصوحا، وفي ذلك صيانة وحفظ للمجتمع من أن تشيع فيه ألفاظ الفاحشة، لأن كثرة الحديث عن الفاحشة وترددها في الألسن يُهون أمرها لدى سامعيها، ويجرئ ضعفاء النفوس على ارتكابها، أو رمي الناس بها.. وفي ذلك تربية للمجتمع الإسلامي الأول ليكون نموذجا للمجتمعات بعد ذلك.

٧- حكم من سب عائشة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-:

قديمًا نال المنافقون من عائشة-رضي الله عنها- والآن يتناولها الرافضة بالسب واللعن، وهي حبيبة رسول الله ﷺ، الصديقة بنت الصديق، إحدى أمهات المؤمنين- فالعجب من قوم يزعمون محبة النبي ﷺ ثم يطعنون ويقذفون أهل بيته، فعلى هؤلاء لعنةُ الله، لأن الطعن في عائشة -رضي الله عنها- طعن في النبي ﷺ وإيذاء له.

وقد جاء في" كتاب الصارم المسلول ص: ٣٥٦" عن الحسن بن يزيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب-رضي الله عنهم- أنه كان بحضرته رجل، فذكر ذلك الرجل عائشة -رضي الله عنها- بذكر قبيح من الفاحشة، فقال الحسن: يا غلام! اضرب عنقه، فقال له العلويون: هذا رجل من شيعتنا، فقال: معاذ الله! هذا رجل طعن على النبي ﷺ **وقد قال تعالى:** ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُوْلَئِكَ مُبَرَّؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (النور:٢٦)، فإن كانت عائشة خبيثة فالنبي ﷺ خبيث، فمعاذ الله عما تقول، فأنت كافر، ثم قال: اضربوا عنقه، فضُرب عنقه ".

قال شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله- في" مجموع الفتاوى:١٥/٣٦٢": " لمَّا كان رَمْي أمهات المؤمنين أذى للنبي ﷺ، لُعن صاحبه في الدنيا والآخرة ". اهـ

ومما يدل على أن قذفهنَّ أذى للنبي ﷺ ما جاء في الصحيحين في حديث الإفك عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: "... **فقام رسول الله ﷺ فاستعذر من عبد الله بن أبي ابن سلول وقال: يا معشر المسلمين! من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمتُ على أهلي إلا خيرًا، ولقد ذكروا رجلًا ما علمتُ عليه إلا خيرًا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي".**

- **وقد أجمع أهل العلم على أن من سب عائشة-رضي الله عنها- واتهمها مما برأها الله منه فهو كافر، لأنه مكذب للقرآن ومكذب لله ﷻ، ومن كذب الله تعالى فقد كفر.**

قال الإمام مالك-رحمه الله-: " من سبَّ أبا بكر وعمر؛ جُلد، ومن سب عائشة؛ قُتل، قيل له: لِمَ يُقتل في عائشة؟ فقال: فمن رماها فقد خالف القرآن، ومن خالف القرآن قُتِل ".

وقال العراقي-رحمه الله- في" طرح التثريب:٨/٦٩": " صَارَتْ بَرَاءَةُ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- مِنْ الْإِفْكِ بَرَاءَةً قَطْعِيَّةً بِنَصِّ الْقُرْآنِ، فَلَوْ شَكَّ فِيهَا إنْسَانٌ وَالْعِيَاذُ بِاَللَّهِ تَعَالَى صَارَ كَافِرًا مُرْتَدًّا بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ ".

وقال ابن القيم -رحمه الله-: " واتفقت الأمة على كفر قاذفها ".

وقال ابن كثير-رحمه الله- في" تفسيره:٣/ ٣٦٩:" في معرض كلامه على حادثة الإفك:" هذه العشر الآيات كلها نزلت في شأن عائشة -رضي الله عنها- حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين بما قالوه من الكذب البحت، والفرية التي غار الله تعالى لها ولنبيه ﷺ، فأنزل الله براءتها صيانة لعرض رسول الله ﷺ، وقد أجمع العلماء قاطبة على أن من سبها بعد هذا ورماها بما رماها به بعد هذا الذي ذُكِرَ في الآية وهي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (النور:٢٣) فإنه كافر، لأنه معاند للقرآن".

تنبيه: ذهب بعض أصحاب الشافعي إلى أنه من سب عائشة-رضي الله عنها- أُدب كما في سائر المؤمنين، وليس قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أن ذلك كفر، وإنما هو كما قال النبي ﷺ:" **واللَّهِ لا يُؤْمِنُ، واللَّهِ لا يُؤْمِنُ، واللَّهِ لا يُؤْمِنُ. قيلَ: مَن يا رَسولَ اللَّهِ؟ قالَ:" الذي لا يَأْمَنُ جارُهُ بَوائقَهُ** ".(البخاري) – أي شره-. ولو كان سلب الإيمان في من سب عائشة -رضي الله عنها- حقيقة؛ لكان سلبه في قوله ﷺ:" **لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهو مُؤْمِنٌ**". (رواه البخاري ومسلم) حقيقة ".

فقال ابن العربي-رحمه الله- ردًا عليهم:" ليس كما زعمتم فإن أهل الإفك رموا عائشة-رضي الله عنها- المطهرة بالفاحشة فبرأها الله تعالى، فكل من سبها بما برأها الله منه؛ مكذب لله، ومن كذب اللهَ فهو كافر. فهذا طريق قول الإمام مالك وهو سبيل الآية لأهل البصائر ". اهـ

ولو أن رجلًا سب عائشة-رضي الله عنها- بغير ما برأها الله منه لكان جزاؤه الأدب.

فضل عائشة -رَضِيَ اللهُ عنها-:

ولقد ظهر في هذه الحادثة فضل عائشة -رَضِيَ اللهُ عنها-، فقد برأها الله تعالى من فوق سبع سماوات من الإفك بقرآن يتلى إلى يوم القيامة، يتعبد المسلمون بتلاوته، ويالها من كرامة وفضل، فالله تعالى أبى أن يجعل براءتها بُشرى يعرفها النبي ﷺ، ويبلغها للأمة، ولكنه سبحانه جعل براءتها قرآنًا يتلى في محاريب المسلمين وصلواتهم إلى يوم القيامة. **فقد أنْزَلَ اللهُ تعالَى:** ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) لَّوْلَا جَاؤُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

(النور:١١-٢٠)

فلو لم يكن من فضل عائشة-رَضِيَ اللهُ عنها- إلا أنه نزل في شأنها قرآن يتلى إلى قيام الساعة لكفى بهذا فضلًا. وقد كانت تقول كما روى البخاري:" ما كنت أظن أن الله تعالى منزل في شأني وحيًا يتلى".

يقول القرطبي-رحمه الله- في" تفسيره:١٢/٢١٢: " قال بعض أهل التحقيق: إن يوسف عليه السلام لما رُمِيَ بالفاحشة برأه الله على لسان صبي في المهد، وإن مريم لما رميت بالفاحشة برأها الله على لسان ابنها عيسى عليه السلام وإن عائشة -رضي الله عنها- لما رميت بالفاحشة برأها الله ﷻ بالقرآن، فما رضي لها ببراءة صبي، ولا نبي، حتى برأها الله بكلامه من القذف والبهتان ". اهـ

وقال ابن كثير-رحمه الله- في" تفسيره عند هذه الآيات: فغار الله لها، وأنزل براءتها في عشر آيات تتلى على مر الزمان، فسَمَا ذكرُها، وعلا شأنُها، وشهد اللهُ لها أنها من الطيبات، ووعدها بمغفرة ورزق كريم ". اهـ

وكان مسروق بن عبد الرحمن الهمداني الكوفي-رحمه الله-وهو من كبار التابعين إذا حدث عنها قال: " حدثتني الصّدِّيقة بنت الصّديق، حبيبة حبيب الله، المبرأة في كتاب الله ﷻ ".

تزوج النبي ﷺ عائشة -رضي الله عنها- بوحي من الله -عز وجل-:

فقد أخرج البخاري ومسلم من حديث عائشة -رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: **أُريتك في المنام ثلاث ليال، جاء بك المَلك في سَرَقَة [1] من حرير، فيقول: هذه امرأتك، فاكشف عن وجهك فإذا أنتِ فيه، فأقول: إن يك هذا من عند الله يُمْضِه ".**

- وفي رواية عند الترمذي من حديث ابن أبي مليكة عن عائشة -رضي الله عنها- **" أن جبريل جاء بصورتها في خرقة حرير خضراء إلى النبي ﷺ فقال هذه زوجتك في الدنيا والآخرة ".**

والنبي ﷺ لم يتزوج امرأة بكرًا غير عائشة-رضي الله عنها:

فقد أخرج البخاري عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: **قلت يا رسول الله أرأيت لو نزلت واديًا وفيه شجرة قد أكل منها، ووجدت شجرًا لم يؤكل منها في أيها كنت ترتع بعيرك؟ قال: في الذي لم يرتع منها**

تعني أن رسول الله ﷺ لم يتزوج بكرا غيرها.

وعاشت عائشة -رضي الله عنها- في رحاب الحبيب ﷺ تنهل من أخلاقه، وعلمه، وورعه، وحلمه، وهديه، فكانت شمسًا في دنيا الناس، لا يستغني عنها القريب ولا البعيد.

١ـ سَرَقَة: بفتح السين والراء والقاف: وهي القطعة أو الخرقة كما جاء في رواية الترمذي.

عائشة -رضي الله عنها- أحب الناس إليه:

يقول الإمام الذهبي-رحمه الله- في" كتابه سير أعلام النبلاء:٢/١٤٢ " متحدثًا عن مكانة ومنزلة عائشة-رضي الله عنها- عند النبي ﷺ:" فما تزوج بكرًا سواها وأحبها حبًا شديدًا كان يتظاهر به، حيث أن عمرو بن العاص ﷺ، وهو ممن أسلم سنة ثمان من الهجرة، سأل النبي ﷺ: **أي الناس أحب إليك يا رسول الله؟ قال عائشة قال: فمن الرجال؟ قال:" أبوها ".** (رواه البخاري ومسلم) **وهذا خبر ثابت على رغم أنوف الروافض وما كان ليحب إلا طيبًا، وقد قال** ﷺ:" **لو كنت متخذًا خليلًا من هذه الأمة، لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكن أخوة الإسلام أفضل ".** فأحب أفضل رجل من أمته، وأفضل امرأة من أمته، فمن أبغض حبيبي رسول الله ﷺ فهو حري أن يكون بغيضًا إلى الله ورسوله. وحبه لعائشة كان أمرًا مستفيضًا، ألا تراهم كيف كانوا يتحرون بهداياهم يومها تقربًا إلى مرضاته ". اهـ

وقد أخرج الحاكم من حديث عائشة -رضي الله عنها- قالت: **قلت: "يا رسول الله! مَنْ مِنْ أزواجك في الجنة؟ قال أما إنك منهن" قالت: فخيل إليَّ أن ذاك لأنه لم يتزوج بكرًا غيري ".**

وأخرج الطبراني بسند حسن عن عائشة -رضي الله عنها- *قالت:* قلت: يا رسول الله! من أحب الناس إليك؟ قال:" ولم"؟ قلت: لأحب من تحب، قال:" عائشة ".

وأخرج أبو يعلى والبزار عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: **دخل عليَّ رسول الله ﷺ وأنا أبكي فقال: " ما يبكيك؟" قلت: سبتني فاطمة، فدعا فاطمة فقال:" يا فاطمة سببت عائشة؟" قالت: نعم يا رسول الله، قال: " أليس تحبين من أُحب؟ قالت: بلى، قال:" وتبغضين من أبغض؟" قالت: بلى، قال:" فإني أُحب عائشةَ فأحبيها"، قالت فاطمة: لا أقول لعائشة شيئًا يؤذيها أبدًا ".**

وأخرج الإمام مسلم من حديث عائشة-رضي الله عنها- قالت: **" كنت أشرب وأنا حائض ثم أناوله النبي ﷺ فيضع فاه على موضع فِي فيشرب، وأتعرق العرق وأنا حائض ثم أناوله النبي ﷺ فيضع فاه على موضع فِيّ ".**

وأخرج البخاري ومسلم من حديث أبي عثمان أن رسول الله ﷺ بعث عمرو بن العاص ﷺ على جيش ذات السلاسل قال: **فأتيته فقلت: أيُّ الناس أحبُّ إليك؟ قال:" عائشة"، قلت: من الرجال؟ قال:" أبوها". قلت: ثم من؟ فقال عمرو ﷺ: فعدَّ رجالًا، فسكت مخافة أن يجعلني في آخرهم ".**

ومما يدل على محبة النبي ﷺ لعائشة-رضي الله عنها-:

ما رواه البخاري ومسلم عن عائشة-رضي الله عنها- قالت: أرسل أزواج رسول الله ﷺ فاطمة بنت رسول الله ﷺ إلى رسول الله ﷺ فاستأذنت عليه وهو مضطجع معي في مِرطي، فأذن لها، فقالت: يا رسول الله! إن أزواجك أرسلنني إليك يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة[١]...وأنا ساكتة... قالت: فقال لها رسول الله:" أي بنية! ألست تحبين ما أحب؟" فقالت: بلي... قال:" فأحبي هذه"، قالت: فقامت فاطمة حين سمعت ذلك من رسول الله ﷺ فرجعت إلى أزواج النبي ﷺ فأخبرتهن بالذي قالت وبالذي قال لها رسول الله ﷺ، فقلن لها: ما نراك أغنيت عنا من شيء فارجعي إلى رسول الله ﷺ فقولي له: إن أزواجك ينشدنك[٢] العدل في ابنة أبي قحافة، فقالت: فاطمة: والله لا أكلمه فيها أبدا.... قالت عائشة -رضي الله عنها-: فأرسل أزواج النبي ﷺ زينب بنت جحش -رضي الله عنها- زوج النبي ﷺ، وهي التي كانت تساميني منهن في المنزلة عند رسول الله ﷺ، ولم أر امرأة قط خيرًا في الدين من زينب، واتقي لله ﷻ وأصدق حديثًا، وأوصل للرحم، وأعظم صدقًة وأشد ابتذالًا لنفسها في العمل الذي تصدق به وتقرب به إلى الله تعالى ما عدا سَوْرَة[٣] من حد[٤] كانت فيها .... تسرع منها الفيئة[٥]، فاستأذنت على رسول الله ﷺ ورسول الله مع عائشة -رضي الله عنها- في مرطها، على الحالة التي دخلت فاطمة عليها وهو بها، فأذن لها رسول الله، فقالت: يا رسول الله! إن أزواجك أرسلنني إليك يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة. قالت[٦]: ثم وقعت بي... فاستطالت عليَّ، وأنا أرقب رسول الله ﷺ وأرقب طرفه هل يأذن لي فيها، قالت: فلم تبرح زينب حتى عرفت أن رسول الله ﷺ لا يكره أن أنتصر. قالت: فلما وقعت بها لم أنشبها[٧] حين انحيت عليها[٨] فقال رسول الله ﷺ وتبسم:" إنها ابنة أبي بكر".

وكان النبي ﷺ يثني عليها:

فقد أخرج البخاري ومسلم عن أبي موسى أن النبي ﷺ قال: " كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران[٩]، وأن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام ".

١- قال الإمام النووي: قولها:" يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة" معناه: يسألنك التسوية بينهن في محبة القلب، وكان النبي يسوي بينهن في الأفعال والمبيت ونحوه، وأما محبة القلب فكان يحب عائشة أكثر منهن، وأجمع المسلمون على أن محبتهن لا تكليف فيها ولا يلزمه التسوية فيها لأنه لا قدرة لأحد عليها إلا الله-سبحانه وتعالى- وإنما يؤمر بالعدل في الأفعال. (مسلم بشرح النووي: ١٥/٢٩٥)

٢- ينشدك: أي يسألك.

٣- السورة: الثوران وعجلة الغضب.

٤- هكذا في معظم النسخ (سورة من حد) وفي بعضها " من حدة " وهي: شدة الخلق وثورانه. (انتهى من حاشية مسلم)

٥- تسرع منها الفيئة: أي الرجوع والمراد أنها تسارع إلى الرجوع إذا وقع شيء من حدة أو سرعة غضب.

٦- يعني عائشة، والمراد: أن زينب وقعت في عائشة، أي نالت منها، وعند البخاري:" فرفعت صوتها حتى تناولت عائشة وهي قاعدة فسبتها".

٧- أنشبها أي: أمهلها.

٨- حين انحيت عليها: أي حين قصدتها بالمعارضة وفي بعض الروايات لمسلم (لم انشبها أن أثخنتها) أي: قمعتها وقهرتها، وفي رواية البخاري: (فتكلمت عائشة ترد على زينب حتى أسكتتها)

٩- زاد ابن مردويه من حديث قرة بن إياس مرفوعًا:" وخديجة بنت خويلد " وإسناده صحيح (انظر البداية والنهاية لابن كثير:٣/١٢٩)

وكان النبي ﷺ يلاطفها ويداعبها:

فقد أخرج الإمام أحمد والنسائي في الكبرى عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: كنت مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره وكنت جارية لم أحمل اللحم ولم أبدن فقال رسول الله ﷺ للناس:" تقدموا، تقدموا"، فتقدموا ثم قال:" يا عائشة! تعالي حتى أسابقك، فسابقته فسبقته، فسكت، حتى إذا حملت اللحم ونسيت خرجت معه في بعض أسفاره فقال للناس:" تقدموا فتقدموا"، ثم قال لي:" تعالي أسابقك"، فسابقته فسبقني، فجعل يضحك ويقول: هذه بتلك ".

وكانت عائشة -رضي الله عنها- تحب النبي ﷺ حبًا شديدًا وتغار عليه:

فقد أخرج الإمام مسلم من حديث عائشة-رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ خرج من عندها ليلًا قالت فغرت عليه فجاء فرأى ما أصنع، فقال:" مالك يا عائشة! أغرتِ؟" فقلت: ومالي لا يغار مثلي على مثلك؟ فقال رسول الله:" أقد جاءك شيطانك؟"، فقلت يا رسول الله أو معي شيطان؟ قال: " نعم "، قلت: ومع كل إنسان؟ قال:" نعم". قلت: ومعك يا رسول الله؟ قال: " نعم ولكن ربي أعانني عليه حتى أَسْلَمَ ".

وأخرج البخاري عن أنس ﷺ أنه قال: كان النبي ﷺ عند بعض نسائه فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين بصحفة فيها طعام فضربت التي النبي ﷺ في بيتها يد الخادم فسقطت الصحفة فانفلقت فجمع النبي ﷺ فلق الصحفة ثم جعل يجمع فيها الطعام الذي كان في الصحفة ويقول:" غارت أمكم"، ثم حبس الخادم حتى أتى بصَحفة من عند التي هو في بيتها، فدفع الصحفة الصحيحة إلى التي كُسِرت صحفتها وأمسك المكسورة في بيت التي كسرت ".

وأخرج الإمام مسلم من حديث عائشة -رضي الله عنها- قالت:" كان رسول الله ﷺ إذا خرج أقرع بين نسائه فطارت القرعة على عائشة وحفصة -رضي الله عنهما- فخرجنا معه جميعًا، وكان رسول الله ﷺ إذا كان بالليل سار مع عائشة يتحدث معها فقالت حفصة لعائشة: ألا تركبين الليلة بعيري وأركب بعيرك فتنظرين وأنظر؟ قالت: بلي فركبت عائشة على بعير حفصة، وركبت حفصة على بعير عائشة، فجاء رسول الله إلى جمل عائشة وعليه حفصة فسلم ثم سار معها حتى نزلوا فافتقدته عائشة فغارت، فلما نزلوا جعلت رجلها بين الإذخر وتقول: يارب سلط عَليَّ عقربًا أو حية تلدغني. رسولك ولا أستطيع أن أقول له شيئًا ".

وأخرج البخاري ومسلم من حديث عائشة -رضي الله عنها- قالت: قال لي رسول الله ﷺ: **" إني لأعلم إذا كنت عني راضية وإذا كنتِ عليَّ غَضْبَى، قالت: فقلت: ومن أين تعرف ذلك؟ فقال:" أما إذا كنت عني راضية، فإنك تقولين: لا ورب محمد! وإذا كنتِ غضبى، قلت: لا ورب ابراهيم! قالت: قلت: أجل. والله يا رسول الله! ما أهجر إلا اسمك[1] ".**

وهي زوجة النبي ﷺ في الدنيا والآخرة:

وقد مر بنا الحديث الذي رواه الترمذي وفيه: **إذا جبريل عليه السلام جاء بصورتها في خرقة حرير خضراء إلى النبي فقال: هذه زوجتك في الدنيا والآخرة ".**

وأخرج الحاكم عن عائشة -رضي الله عنها- **" أن رسول الله ﷺ ذكر فاطمة -رضي الله عنها- قالت: فتكلمت أنا فقال:" أما ترضين أن تكوني زوجتي في الدنيا والآخرة "، قلت: بلي والله، قال:" فأنتِ زوجتي في الدنيا والآخرة ".**

فعائشة -رضي الله عنها- كانت نِعْم الزوجة للنبي ﷺ، أُعطيت حسن خَلْق وخُلُق، وفصاحة في اللسان، ورجاحة عقل، ورصانة رأي، وتحبب إلى بعل، إن غضبت لم يخرجها غضبها عن وقارها وأدبها، وإنما تهجر اسم النبي ﷺ بلسانها فقط.

نزل الوحي على رسول الله ﷺ في لحاف عائشة -رضي الله عنها-:

وهذا مما خُصت عائشة -رضي الله عنها- به دون أزواج النبي ﷺ.

فقد أخرج البخاري عن هشام عن أبيه قال: **" كان الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة-رضي الله عنها- قالت عائشة: فاجتمع صواحبي إلى أم سلمة فقلن يا أم سلمة! والله إن الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة وإنا نريد الخير كما تريده عائشة فمُري رسول الله أن يأمر الناس أن يهدوا إليه حيث كان، أو حيث دار. قالت: فذكرت ذلك أم سلمة للنبي ﷺ قالت: فأعرض عني فلما عاد إليّ ذكرت له ذلك فأعرض عني، فلما كان في الثالثة ذكرت له فقال: " يا أم سلمة لا تؤذيني في عائشة فإنه والله ما نزل عليّ وحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها ".**

ذكر ابن كثير في" تفسيره:٣/٦٥٣" عن بعض العلماء أنه استظهر حكمة عدم نزول الوحي إلا في لحاف عائشة -رضي الله عنها- فقط فقال:" لأن النبي لم يتزوج بكرًا سواها، ولم ينم معها رجل في فراشها سوى النبي ﷺ، فناسب أن تخصص بهذه المزية، وأن تفرد بهذه المرتبة العالية ". اهـ

١- قال الإمام النووي: وقوله لعائشة رضي الله عنها: " إني لأعلم إذا كنتي عني راضية، وإذا كنت على غضبي إلى قولها يا رسول الله ما أهجر إلا أسمك) قال القاضي: مغاضبة عائشة للنبي ﷺ هي مما سبق من الغيرة التي عفي عنها للنساء في كثير من الأحكام كما سبق لعدم انفكاكهن منها. حتى قال مالك وغيره من علماء المدينة يسقط عنها الحد إذا قذفت زوجها بالفاحشة على جهة الغيرة قال: واحتج بما روي عن النبي ﷺ أنه قال (ما تدري الغيراء أعلى الوادي من أسفله) ولولا ذلك لكان على عائشة في ذلك الحرج ما فيه لأن الغضب على النبي ﷺ وهجرة كبيرة عظيمة ولهذا قالت: لا أهجر إلا أسمك فدل على أن قلبها وحبها كما كان وإنما الغيرة في النساء لفرط المحبة (شرح الإمام النووي على مسلم: ١٥/٢٩٢)

جبريل -عليه السلام - يقرئ عائشة -رضي الله عنها- السلام:

فقد أخرج البخاري ومسلم من حديث ابن شهاب قال أبو سلمة: إن عائشة-رضي الله عنها- قالت: "قال رسول الله ﷺ يومًا:" يا عائش! هذا جبريل يقرئك السلام". فقلت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته ترى مالا أرى- تريد رسول الله ﷺ - ".

خُيِرت عائشة -رضي الله عنها- بين الدنيا وزينتها وبين النبي ﷺ والدار الآخرة فاختارت النبي ﷺ والدار الآخرة:

فعندما أنزل الله تعالى آية التخيير بدأ النبي ﷺ بعائشة فخيرها، فاختارت النبي ﷺ والدار الآخرة فاستن بها بقية أزواجه-رضي الله عنهنَّ- وقلنَّ كما قالت عائشةُ-رضي الله عنها-.

فقد أخرج الإمام مسلم من حديث جابر بن عبد الله-رضي الله عنهما- قال: " دخل أبوبكر يستأذن على رسول الله ﷺ فوجد الناس جلوسًا ببابه، لم يؤذن لأحد منهم. قال: فأذن لأبي بكر فدخل، ثم أقبل عمر فاستأذن فأذن له، فوجد النبي ﷺ جالسًا حوله نساؤه واجمًا ساكتًا، قال: فقال: لأقولن شيئًا أضحك النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! لو رأيت بنت خارجة سألتني النفقة، فقمت إليها فوجأت عنقها؟ فضحك رسول الله ﷺ وقال:" هن حولي كما ترى يسألنني النفقة". فقام أبو بكرﷺ إلى عائشة -رضي الله عنها- يجأ عنقها، وقام عمرﷺ إلى حفصة-رضي الله عنها- يجأ عنقها كلاهما، يقول: تسألن رسول الله ما ليس عنده فقلن: والله لا نسأل رسول الله شيئا أبدًا ليس عنده. ثم اعتزلهن شهرًا، أو تسعًا وعشرين، ثم نزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب:٢٨،٢٩)

قال: فبدأ بعائشة فقال: يا عائشة إني أريد أن أعرض عليك أمرًا أحب أن لا تعجلي فيه حتى تستشيري أبويك " قالت: وما هو يا رسول الله فتلا عليها الآية، قالت: أفيك يا رسول الله أستشير أبوي؟! بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة وأسألك ألا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلتُ. قال: لا تسألني امرأة منهن، إلا أخبرتها. إن الله لم يبعثني معنتًا ولا متعنتًا، ولكن بعثني معلمًا ميسرًا ".

تميزت عائشة -رضي الله عنها- عن زوجات النبي ﷺ بأمور:

تقول عائشة -رضي الله عنها-: " خلال فيّ سبع لم تكن في أحد من النساء إلا ما آتى اللهُ مريم بنت عمران، والله ما أقول هذا فخرًا على أحد من صواحبي، فقال لها عبد الله بن صفوان: وما هن يا أم المؤمنين؟ قالت: نزل المَلَكُ بصورتي، وتزوجني رسول الله ﷺ لسبع سنين، وأُهديت إليه لتسع سنين، وتزوجني بكرًا، ولم يشركه فيّ أحد من الناس، وكان الوحي يأتيه وأنا وهو في لحاف واحد.

قالت: وكنتُ أحب الناس إليه، وبنت أحب الناس إليه، وقد نزل فيّ آيات من القرآن وقد كادت الأمة تهلك فيَّ، ورأيت جبريل ولم يره أحد من نسائه غيري، وقُبِض في بيتي، ولم يله أحد غيري أنا والملك".

(قال الهيثمي في المجمع: ١٥٣٠٨ هو في الصحيح باختصار)

وأخرج الحاكم عن عبد الرحمن بن الضحاك أن عبد الله بن صفوان أتي عائشة-رضي الله عنها- فقالت: " لي خلال تسع لم تكن لأحد إلا ما آتى اللهُ مريمَ-عليها السلام- والله ما أقول هذا فخرًا على صواحباتي، فقال ابن صفوان: وما هن؟ قالت: جاء الملك بصورتي إلى رسول الله ﷺ فتزوجني، وتزوجني بكرًا، وكان يأتيه الوحي وأنا وهو في لحاف واحد، وكنت أحب الناس إليه، ونزل آيات كادت الأمة تهلك فيها، ورأيت جبريل ولم يره أحد من نسائه غيري، وقبض في بيتي، ولم يله أحد -غير المَلَك- إلا أنا ".

وكانت عائشة -رضي الله عنها- زاهدة في الدنيا مقبلة على الآخرة:

جاء في كتاب الزهد للإمام أحمد عن عروة ﷺ أنه قال عن عائشة -رضي الله عنها-: " رأيتها تقسم سبعين ألفا وهي ترقع درعها ".

وجاء في كتاب أحكام النساء لابن الجوزي عن عبد الله بن الزبير-رضي الله عنهما- قال: " ما رأيت امرأتين قط أجود من عائشة وأسماء، وجودُهما مختلف: أما عائشة فكانت تجمع الشيء حتى إذا اجتمع عندها قسمت، وأما أسماء فكانت لا تمسك شيئًا لغد ".

وعن عروة ﷺ قال: " كانت عائشة -رضي الله عنها-لا تمسك شيئًا مما جاءها من رزق الله تعالى إلا تصدقت به ". (السمط الثمين ص:٨٨)

وأخرج أبو نعيم في الحلية والحاكم عن عروة ﷺ قال: " بعث معاوية ﷺ مرة إلى عائشة -رضي الله عنها- بمائة ألف درهم فقسمتها لم تترك منها شيئًا، فقالت بريرة: " أنت صائمة، فهلا ابتعت لنا منها بدرهم لحما؟" قالت: " لو ذكرتني لفعلت ".

وأخرج ابن سعد في" الطبقات:٨/٤٥" عن عروة ﷺ قال: " وإن عائشة تصدقت بسبعين ألف درهم وأنها لترقع جانب درعها ".

وفي اللحظات الأخيرة من حياة النبي ﷺ يستأذن أزواجه أن يُمرض في بيت عائشة.

فقد أخرج البخاري ومسلم من حديث عائشة -رضي الله عنها- " أن رسول الله ﷺ كان يسأل في مرضه الذي مات فيه، يقول: أين أنا غدًا؟ أين أنا غدًا؟ يريد يوم عائشة، فأذن له أزواجه يكون حيث شاء، فكان في بيت عائشة حتى مات عندها قالت عائشة -رضي الله عنها-: فمات في اليوم الذي كان يدور عليَّ فيه في بيتي فقبضه الله وإن رأسه لبين نحري[1] وسحري[2] وخالط ريقه ريقي، ثم قالت: دخل عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ﷺ ومعه سواك يستن به فنظر إليه رسول الله ﷺ فقلت له: أعطني هذا السواك يا عبد الرحمن، فأعطانيه فقضمته فأعطيته رسول الله ﷺ فاستن[3] به وهو مستند إلى صدري"

وخرج النبي ﷺ من الدنيا وقد جمع الله بين ريقه وريقها:

فقد أخرج الإمام أحمد من حديث عائشة -رضي الله عنها- قالت: تُوفِّي رسول الله ﷺ في بيتي، وفي يومي وليلتي وبين سحري ونحري، ودخل عبد الرحمن بن أبي بكر ومعه سواك رطب، فنظر إليه حتى ظننت أنه يريده، فأخذته، فمضغته ونفضته وطيبته ثم دفعته إليه، فاستن به كأحسن ما رأيته مستنا قط، ثم ذهب يرفعه إلى فسقطت يده، فأخذت أدعو له بدعاء كان يدعو به له جبريل، وكان هو يدعو به إذا مرض، فلم يدع به في مرضه ذلك، فرفع بصره إلى السماء وقال: "الرفيق الأعلى". وفاضت نفسه، فالحمد لله الذي جمع بين ريقي وريقه في آخر يوم من الدنيا.

عائشة -رضي الله عنها- وقمة الحياء:

فقد أخرج الحاكم عن أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- قالت: " كنت أدخل البيت الذي دُفِنَ فيه رسول الله ﷺ وإني واضعة ثوبي وأقول:" إنما هو زوجي وأبي"، فلما دُفن عمر ﷺ والله ما دخلته إلا مشدودة عليّ ثيابي حياءً من عمر ﷺ ".

١- النحر: أعلى الصدر.
٢- السحر: الرئة أي أنه ﷺ مات وهو مستند إلى صدرها وما يحاذي سحرها -رضي الله عنها-.
٣- يستن: يستاك.

وكان أكابر الصحابة يرجعون إليها بعد وفاة النبي ﷺ فيما أشكل عليهم من أمر الدين:

يقول الإمام الذهبي-رحمه الله- عن عائشة -رضي الله عنها-: " بنت الصديق الأكبر خليفة رسول الله ﷺ القريشية المكية النبوية أم المؤمنين زوجة رسول الله ﷺ أفقه نساء الأمة على الإطلاق ".

(سير أعلام النبلاء: ٢/١٣٥)

وجاء في كتاب الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة -رضي الله عنها-على الصحابة للإمام الزركشي:

أن عائشة -رضي الله عنها- إحدى المجتهدات وكانت من أنفذ الناس رأيًا في أصول الدين ودقائق الكتاب المبين، وكانت تحسن أن تقرأ، ولم يكن يعرف ذلك إلا عدد محدود من أصحاب رسول الله ﷺ وكم كان لها من استدراكات على الصحابة وملاحظات، فإذا علموا بذلك منها رجعوا إلى قولها.

وأخرج الترمذي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: " **ما أشكل علينا أصحاب رسول الله حديث قط فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علمًا** ".**(صحيح الترمذي:٣٨٨٣)**

وجاء في كتاب" الإجابة" للزركشي عن مسروق -رحمه الله- قال: " رأيت مشيخة أصحاب محمد ﷺ يسألونها عن الفرائض ".

وقيل لمسروق-رحمه الله-: " كانت عائشة-رضي الله عنها- تحسن الفرائض؟ قال: والله لقد رأيت الأحبار من أصحاب محمد ﷺ يسألونها عن الفرائض ". **(من أخلاق العلماء لمحمد بن سليمان ص: ٦١)**

وقال عطاء: " كانت عائشة -رضي الله عنها- أفقه الناس، وأحسن الناس رأيًا في العامة ".

وأخرج ابن سعد في" الطبقات:٧/٣٩" عن عروة بن الزبير-رضي الله عنهما- قال: " **ما رأيت أحدًا أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة-رضي الله عنها-** ".

وقد روت عائشة -رضي الله عنها- "٢٢١٠" حديثًا عن رسول الله ﷺ منهم "٣٢٤" حديثًا في البخاري ومسلم.

وقال الحافظ أبو حفص عمر بن عبد المجيد القرشي الميانشي في كتاب" إيضاح مالا يسع المحدث جهله": " اشتمل كتاب البخاري ومسلم على ألف حديث ومائتي حديث من الأحكام فروت عائشة-رضي الله عنها- من جمله الكتابين مائتين ونيفًا وتسعين حديثًا لم يخرج عن الأحكام منها إلا يسير".

ولذلك قال الحاكم أبو عبد الله -رحمه الله-: " فحمل عنها ربع الشريعة ". **(الإجابة للزركشي ص: ٥٩)**

وقال الزهري-رحمه الله-: " لو جُمع علم عائشة إلى علم جميع النساء، لكان علم عائشة أفضل ".

(سير أعلام النبلاء:٢/١٨٠)

وابن عباس -رضي الله عنهما- حبر الأمة أثنى عليها عند موتها:

فقد أخرج البخاري والإمام أحمد عن عمر بن سعيد بن أبي حسين قال: " حدثني ابن أبي مليكة قال: استأذن ابن عباس قبيل موتها على عائشة وهي مغلوبة، قالت: أخشى أن يثني عليّ، فقيل ابن عم رسول الله ﷺ ومن وجوه المسلمين، قالت: ائذنوا له. فقال: كيف تجدينك؟ قالت: بخير إن اتقيت. قال: فأنت بخير إن شاء الله تعالى، زوجة رسول الله ﷺ ولم ينكح بكرًا غيرك، ونزل عذرك من السماء، ودخل ابن الزبير خلافه، فقالت: دخل ابن العباس فأثنى عليَّ وددت أني كنتُ نسيًا منسيًا ".

وفي رواية للبخاري: أن عائشة-رضي الله عنها- اشتكت فجاء ابن عباس -رضي الله عنهما- فقال: " يا أم المؤمنين تقدمين على فرط صدق، على رسول الله ﷺ وعلى أبي بكر ".

وفي رواية للإمام أحمد زيادة وفيها أنه قال لها: " وأنزل الله براءتك من السماء، جاء به الروح الأمين فأصبح ليس لله مسجد من مساجد الله يذكر الله إلا يتلى فيه آناء الليل وآناء النهار ". (إسناده حسن)

ورحم الله من قال عن أمنا عائشة-رضي الله عنها-:

إني أقـــول مبينًـــا عـــن فضلها ... ومترجمًا عن قولها بلساني
يا مبغضي لا تـــأتِ قـــبر محمد ... فالبيت بيتي والمكان مكاني
إني خصصت على لسان محمد ... بصفات بـــر تحتهن معاني
وسبقتهن إلى الفاضـــــل كلهـــا ... فالسبق سبقي والعنان عناني
وزوجني رسول الله لـــم أرَ غيره ... الله زوجني بـــــه وحبـــــاني
وأتـــــاه جبريل الأمين بصورتي ... فأحبني المختـــار حين رأني
وأنا ابنة الصديق صاحب أحمد ... وحبيبه في الســـر والإعلانِ
وتكـــلم الله العظيـــم بحجتـــي ... وبراءتي في محكم القـــــرآنِ
والله فضلني وعـــظم حرمتـــي ... وعلى لســـــان نبيه برانـــي
والله في القرآن قد لعـــــن الذي ... بعد البراءة بالقبيـــح رماني
والله وبـــخ مـــــن أراد تنقصي ... إفكًا وسبّح نفســـه في شاني